الثّقافة والاتّجاه الاشتراكي العلمي في الفكر العربي المعاصر

د . أحمد ماضي

(الجامعة الاردنية)

ليست الثقافة موضوعا يتفرد ببحثه علم ما ، انما هي موضوع مشترك بين مجموعة من العلوم من اهمها علم الاجتماع ، الفلسفة ، علم النفس ، التاريخ ، علم الآثار . . . واكثر من ذلك فقد ظهرت ، في ازمان مختلفة ، فروع جديدة من المعرفة تعالج الثقافة مثل سوسيولوجية الثقافة ، سيكولوجية الثقافة ، تاريخ الثقافة . . . وفي السنوات الماضية الاخيرة بدأ يتشكل علم جديد يسمى « علم الثقافة » أو « نظرية الثقافة » وهو يضم جميع فروع المعرفة التي تعالج الثقافة .

ولعل الذي يفسر هذا الاهتمام بالثقافة هو أنها تخص جميع مجالات الحياة الاجتماعية بلا استثناء كخاصية نوعية لها . « ففي الثقافة بالذات يبرز جوهر الحياة الاجتماعية »(١) . انها ذاتها ظاهرة اجتماعية ، وبالتالي لا يمكن ان تفهم من نفسها ، بل في علاقتها بالمجتمع . كما انها ليست ثابتة استاتيكية ،وذلك لاتصالها الوثيق بالابداع . وبناء على ذلك تعرف الثقافة بانها النشاط الابداعي للناس . يقول الباحثان باليو وزلوبين في دراستهما المشتركة أن الثقافة « هي النشاط الخلاق نفسه للانسان . . . »(٢) .

وتؤكد باحثة أخرى التعريف المذكور قائلة « الثقافة عبارة عن تجسيد للقوى الخلاقة للمجتمع والفرد في قيم ثقافية محددة »(٣) . اذن الثقافة لا تصف أي نشاط في الميدانين المادي والروحي ، بل تصف النشاط الذي يعتبر ابداعيا . انها متصلة بالنشاط الخلاق ـ الاجتماعي للانسان الذي يوجه نحو تغيير الطبيعة ، المجتمع ، والانسان نفسه . وبناء على ذلك فان الثقافة تمثل مستوى استحواذنا على قوى الطبيعة ، وقوى المجتمع ، ومستوى تكوين الثروة الروحية للانسان . ومصداقا لهذا الراي يقول أحد الباحثين : « تعبر الثقافة عن معيار السيطرة البشرية على

الطبيعة ـ على قوى الطبيعة الخارجية وعلى قوى طبيعتها الخاصة على حد سواء»(٤). ومثل هذا الفهم للثقافة يحتم علينا القول ان ثقافة المجتمع مؤشر لمستوى قوى تطوره، نظرا لأنها تمثل مجموع القيم المادية والروحية التي يخلقها البشر ومضمونها وايضا تشمل النشاط الخلاق الذي ينتج الافكار والتصورات ويعمل على تجسيدها ماديا. وهكذا نجد أن الثقافة بالمعنى الواسع للكلمة تضم جميع مجالات الحياة الاجتماعية وتعبر عن مستوى معرفة واستحواذ الانسان على قوانين الطبيعة والمجتمع. وهنا يصدق تعريف الثقافة الآتي: « الثقافة ـ مجموعة انجازات المجتمع في مجال التنوير، العلم، الفن، ومجالات الحياة الروحية الاخرى، والمهارة في استغلال هذه الانجازات في سبيل قهر قوى الطبيعة، ومن اجل نمو الانتاج وحل المهام الملحة للتطور الاجتماعي »(٥). واذا كان مثل هذا التعريف يصدق على الثقافة بصورة عامة، فان ثقافة الفرد تتحدد بثرائه من المعارف والمهارات والمثل. ومعنى ذلك أن حصول الانسان على المعارف واكتسابه للخبرات في هذا المجال أو ذاك من النشاط، واستيعابه احد انظمة القيم، وتشكيل سلوك معين ـ كل ذلك يرتبط بالثقافة. ومن المعلوم أن كل انسان يوجد منذ نعومة اظفاره تحت تأثير نمط معين من الثقافة.

لقد اتضح مما تقدم قوله ان الثقافة موضوع ذو أهمية خاصة على الصعيدين النظري والعملي. والجدير بالذكر ان المفكرين والباحثين العرب لم يهملوا هذا الموضوع. فقد اولوه اهتمامهم وكتبوا فيه الكثير، بالرغم من انهم، حسب اعتقادي، لم يبحثوا الموضوع بصورة نظرية كافية. فلا تزال الثقافة تفتقر الى المزيد من البحث. واكثر من ذلك فان الثقافة كما يفهمها المفكرون والباحثون العرب تحتاج الى التقويم والنقد. ومحاولتي في هذا البحث ينبغي ان تفهم في هذا الاطار. فأنا أحاول عرض وتحليل مفهوم الثقافة لدى أبرز انصار الاتجاه الاشتراكي العلمي في الفكر العربي المعاصر، وهم د. انور عبد الملك، د. محمود أمين العالم، د. حسين مروه، د. طيب تيزيني. ومن الثابت انهم يتبنون الاشتراكية العلمية بالرغم من انهم يطلقون عليها اسماء مختلفة. فالدكتور طيب تيزيني يسميها « الفكرية الاشتراكية العلمية الثورية »، بينما د. محمود أمين العالم يسميها « العقلية العلمية النقدية ». اما د. عبد الملك فيسميها «الفلسفة العقلية العلمية». وسأكتفي، كمثال، بتوضيح « الفلسفة العقلية العلمية » كي يكون الاتجاه الاشتراكي العلمي، كما يفهمه انصاره، واضحا في اذهان القراء.

ينطلق د. انور عبد الملك بادىء ذي بدء من ان « الوجود هو اساس الفكر. كل شيء في حركة وتطور ـ وهو الاتجاه الذي حدده « هيراقليطس » منذ القدم

بعبارته المشهورة « الانسان لايستحم مرتين في نهر واحد »(٦). ويضيف قائلا : ان الوجود قابل للفهم وان عملية المعرفة لن تقف ابدا عند حد(٧). ومما يلفت النظر ان د. انور عبد الملك يطلق على اتجاهه ، بالاضافة الى التسمية السالفة الذكر . « المنهج النقدي » . وهذا المنهج يعني بالنسبة له « النظر الى الاشياء نظرة تاريخية تدرك ان الوجود بأسره في حركة دائمة ، وان كل شيء يحمل في طياته تناقضات لا بد لنا ان نفيد من صراعها للتقدم الى الامام »(٨) . وكذلك يعني « امتحان كافة المعتقدات والافكار والانظمة بمنظار العقل والمنطق والعلم »(٩)، « ونبذ منهج السلطة في مجال الثقافة ، والاعتماد على معطيات العلوم والتجارب الانسانية في المقام الاول »(١٠) .

هذه الاسس الفلسفية حتمت على انصار الاشتراكية العلمية النظر الى الثقافة لا كمفهوم مستقل ، بل كمفهوم وثيق الصلة بالفلسفة ، بالنظرية . فهم يؤكدون على هذا النحو او ذاك ضرورة ارتكاز الثقافة الى احدى الفلسفات ، النظريات . وللتدليل على ذلك يولي د. محمود امين العالم ، على سبيل المثال لا الحصر ، الفكر النظري أهمية خاصة ، على اعتبار « انه منظومة المفاهيم والتصورات العامة التي يستند اليها الانسان في تعبيره ومسلكه . وهي خلاصة خبرته الاجتماعية الحية ووسيلته لمعرفة الواقع من حوله والسيطرة عليه »(١١) . وبناء على ذلك يعتبر محمود أمين العالم الفكر النظري « عصب الثقافة »(١٢) . اما د. طيب تيزيني فيؤكد اهمية النظرية بالنسبة الى الثقافة قائلا ان « قضية » الثورة الثقافية في الاقطار العربية تطرح مسألتين اساسيتين : الاولى هي « نظرية الثقافة ، أي النظرية التي من خلالها نطرح قضية الثورة في الثقافة »(١٣). ولعل اوضح المفكرين الاشتراكيين العلميين في الكشف عن الفلسفة التي ينبغي ان تكون اساسا للثقافة هو د. أنور عبد الملك اذ يؤكد ان الثقافة تحتاج الى أن يحدد اتجاهها . « وهذا الاتجاه بدوره لابد له من الاعتماد على فلسفة للثقافة الوطنية واضحة المعالم أمام الشعب وأمام المشتغلين بالشؤون الثقافية »(١٤) . وما يستحق التنويه به ان د.انور عبد الملك لا يكتفي بأن يؤكد ضرورة اعتماد الثقافة على الفلسفة ، بل يحدد كذلك هذه الفلسفة « وعندنا أن هذه الفلسفة هي الفلسفة العلمية التي تتفق ومقتضيات التصنيع . انها فلسفة تؤمن بالواقع ، وبدور النقد دون مجرد التقرير ، وبالتطور والحركة دون الجمود والركود »(١٥) . واذا كانت الفلسفة العلمية هي الفلسفة التي تناسب المجتمع الصناعي ، فان العقلية الاسطورية تتفق والمجتمع الزراعي . ويعدد د. انور عبد الملك مرتكزات العقلية الاسطورية على النحو الآتي :

١ ــ الاعتماد على النقل والعجز عن الخلق .

٢ ــ الثبات والاستمرار دون الحركة والتطور .

٣ ـ الماضي والتراث دون المستقبل والتقدم .

وبناء على ما تقدم يطرح د. انور عبد الملك أمام المثقفين المصريين مهمة اولى ملقاة على عاتقهم . وهذه المهمة تتلخص في « تحرير العقلية المصرية من اتجاهها الاسطوري ودفعها نحو الاتجاه العلمي »(١٦) . والذي يستحق الذكر في هذا المجال ان محمود أمين العالم يتفق مع ما يطرحه د. انور عبد الملك من ضرورة التخلص من العقلية الاسطورية واستبدال العقلية العلمية بها . فهو يؤكد الحاجة الشديدة الى العقلية النقدية ويطالب بأن تسود مثل هذه العقلية الحياة الاجتماعية والفردية على حد سواء . وينطلق في ذلك كله من ان « التسليم القدري » لا يزال سائدا في الريف ، وان « التواكلية » لا تزال قسمة من قسمات الحياة اليومية ، وان النظرة الانفعالية والجزئية « لا تزال تشكل كثيرا من المواقف الاجتماعية والفردية . ويعتبر محمود أمين العالم كل ذلك امتدادا لتصورات المجتمع القديم في قلب مجتمعنا الجديد . وهي استمرار فكري لسلطان الطبقات الاجتماعية التي صفيت سياسيا واقتصاديا ... »(١٧) . ويقول في موضع آخر موضحا نفوذ « العقلية الاسطورية ـ الذاتية ـ البراجماتية » : « ما تزال التصورات الغيبية والتواكلية وقيم الذاتية والنفعية واللامبالاة تسود في مستويات وقطاعات مختلفة من المجتمع ، لم تمسها روح الفكر العلمي الموضوعي »(١٨) . وأيضا يبين هيمنة العقلية الاقطاعية والراسمالية قائلا : « وما تزال التصورات والقيم والاذواق والعادات الاقطاعية والراسمالية تعشعش وتتنفس وتسود »(١٩) .

نرى من كل ما تقدم ان الأسس الفلسفية التي يصفونها بالعلمية حتمت على مفكري الاشتراكية العلمية التصدي بالنقد للعقلية الاسطورية وللعقلية الاقطاعية ـ الراسمالية . واذا كانت فلسفتهم العلمية قد فرضت عليهم نقد العقلية الاسطورية وطرح العقلية العلمية بديلا لها ، فان اتجاههم الاشتراكي الزمهم محاربة العقلية الاقطاعية والرأسمالية . فمواقفهم من الواقع لا يمكن ان تفهم الا في ضوء اتجاههم الاشتراكي العلمي . فهي منسجمة كل الانسجام مع هذا الاتجاه .

وحري بنا بعد هذا أن نذكر أن انصار الاشتراكية العلمية لا يؤكدون اعتماد الثقافة على الفلسفة فحسب ، بل يؤكدون كذلك ارتباط الثقافة بالسياسة . فالثقافة تخضع للسياسة . والاخيرة ـ أي السياسة ـ تنعكس في مجال الثقافة . وهنا لا بد من طرح السؤال الآتي : ماهي سياسة الثقافة ؟ يجيب د. انور عبد الملك عن هذا السؤال قائلا ان سياسة الثقافة هي : « ذلك اللون من السياسة الذي يعنى بتحديد دور النشاط الثقافي في عموم عملية التطور التاريخي لمجتمع معين ، في مرحلة معينة من ذلك التطور ، دوره الممكن ، ادواره الممكن تحقيقها »(٢٠) . ويهاجم د. انور عبد

الملك اولئك الذين يتصورون ان تحقيق النهضة الثقافية في مصر اجراء ثقافي خالص لا يمت الى السياسة بصلة ، ويؤكد خضوع الثقافة للسياسة . يقول د. انور عبد الملك : « انالذين يظنون ان النهضة الثقافية المصرية امر « ثقافي » محض ، وانه لا علاقة له بالسياسة والكفاح السياسي ، يخدعون انفسهم ويسيئون الى الثقافة »(٢١) .

واذا كان د. انور عبد الملك يؤكد اعتماد النهضة الثقافية على السياسة ، فان د. طيب تيزيني يؤكد ريادة الثورة السياسية في التحويلات الجذرية في المجالات المختلفة ، وذلك لان الثورة الثقافية لا يمكن أن تضطلع بهذا الدور . يقول د. طيب تيزيني : « الثورة الثقافية لا يمكن أن تكون هي الرائدة في عملية التحويل الثوري في وطننا ، وانما الثورة السياسية تمارس دور الريادة هذا ، في الوقت الذي تتوطد فيههذهالثورة بامتزاجها بآفاق الثورة الثقافية الشاملة . وهي في دورهاالريادي هذا تستطيع استقطاب جميع قوى التقدم والثورة في الوطن العربي القادرة على انجاز مهمات التحويل الاجتماعي الانتاجي ، والقومي والثقافي »(٢٢) .

مما لا شك فيه ان الثقافة تتأثر بالسياسة تأثرا واضحا لا جدال فيه . واكثر من ذلك فان السياسة تعمل على توجيه الثقافة ، وذلك لان السياسة بالمعنى الواسع للكلمة لا يمكن ان تكون حيادية ازاء الثقافة . فالسياسة توظف الثقافة لخدمة أغراضها ، كما أن السياسة تستغل كأداة لنشر الثقافة . يقول احد الباحثين ان السياسة تمثل « أهم ذراع لنشر الثقافة بالعرض ، ووسيلة عظمى لتثقيف الجماهير العاملة »(٢٣) . والواقع ان العلاقة بين السياسة والثقافة ذات طابع جدلي . فهما يؤثران الواحد في الاخر ويشترط احدهما الاخر . ان السياسة الصحيحة لا تستطيع أن تستغني عن الثقافة نفسها ، وذلك لان الثقافة تمثل اساس السياسة . كما الثقافة لا تنمو ولا تزدهر بدونالسياسة . ومن حصيلة ما تقدم نرى ان انصار الاشتراكية العلمية قد بينوا بوضوح اهمية السياسة بالنسبة الى الثقافة ، غير انهم لم يكشفوا بنفس الدرجة من الوضوح أهمية الثقافة بالنسبة الى السياسة . ولعلهم ركزوا على اسبقية وأهمية السياسة بسبب الصراع الذي كانوا يقودونه ضد دعاة تحقيق النهضة الثقافة باجراءات ثقافية خالصة ، الامر الذي ادى الى عدم ايلاء الثقافة الاهمية التي تستحق من حيث تأثيرها في السياسة . صحيح أن السياسة ذات تأثير بالغ الاهمية في الثقافة ، بيد أن الثقافة ليست مجرد مرآة تنعكس عليها السياسة . فالثقافة والسياسة تأثيرهما متبادل ، وتفاعلهما ليس احادي الاتجاه .

والسؤال الذي يلح على الذهن هو : ما هي الثقافة في تصور انصار الاشتراكية العلميـة ؟

ما يسترعي النظر هو ان الثقافة ، كما يفهمها محمود امين العالم ، أقرب ، من حيث الدلالة والوظيفة ، الى الفلسفة . والجدير بالذكر أن هذا الفهم الخاص للثقافة لا نجده عند الآخرين من انصار الاشتراكية العلمية . فهو يقول عن الثقافة انها « رؤية عامة الى الحياة والمجتمع تتجسد في السلوك الفكري ، والوجداني والاخلاقي والذوقي للانسان »(٢٤) . ومن تكرار القول ان نسجل هنا ، ان الفلسفة أحد عناصر الثقافة ، وبالتالي فهي تسهم في تشكيلها لدى الانسان . بيد انه من غير الجائز ان نتصور الثقافة فلسفة . فلا محيد عن التمييز بينهما . وما أود ان اشير اليه فضلا عن ذلك هو أن محمود امين العالم يؤكد ان لكل انسان ثقافته . يقول محمود أمين العالم : « ولكل انسان ثقافته ، مهما كان مستوى هذه الثقافة ، ومهما كانت طبيعة هذه الثقافة . فليس هناك انسان يخلو عقله ووجدانه وضميره وحسه من خبرة حية ، من وجهة نظر ، من موقف »(٢٥) .

ومن الحق ان نقول أن الدكتورين انور عبد الملك وطيب تيزيني يقدم كل مهما تعريفا للثقافة يختلف عن تعريف محمود أمين العالم لها . وما نلحظه أن الدكتور أنور عبد الملك يعرف الثقافة تعريفا متأثرا بالماركسية التي تميز بين البناء التحتي والبناء الفوقي . فالثقافة تنتمي ، من وجهة نظر د. انور عبد الملك ، الى البناء الفوقي فقط الذي يقوم على أساس البناء التحتي . يقول : « الثقافة يمكن تعريفها بانها مجموعة الظواهر الاجتماعية التي تنتمي الى مستوى البناء العلوي فقط والتي تعتبر انعكاسا وتعبيرا مركبا عن القاعدة الاقتصادية للمجتمع : النظريات والمذاهب السياسية ، والقانونية ، والاجتماعية ، الادب ، الفنون ، العلم ، الفلسفة ، وقد يمتد تعريف الثقافة فيشمل عنصر الدين في حالة وجوده ، وهو في هذه الحالة يدخل عنصرا لا ــ عقليا ، ينتمي الى مجال الايديولوجية ... »(٢٦) .

مما سبق يتضح ان د. أنور عبد الملك يعرف الثقافة تعريفا أقرب الى ان يكون تعريفا للثقافة الروحية . والمحصل ان تعريفه يلغي الثقافة المادية ولا يأخذها بالحسبان . وما يقال عن تعريف د. انور عبد الملك للثقافة ، يمكن أن يقال أيضا بنفس الدرجة من الصدق عن تعريف د. طيب تيزيني للثقافة* . يقول د. طيب

---

* اود ان اؤكد في هذا الصدد ان د . طيب تيزيني لا يلغي ما اطلق عليه الثقافة المادية . كل الذي يفعله هو انه يولي ما اسميه الثقافة الروحية اهميةخاصة على نحو يؤدي الى عدم معالجة الثقافة المادية. وللتدليل علىذلك يقول : «تستخدم هنا(مفهوم الثقافة) بمعناها الضيق ، أي بمعنى النشاط الذهني الذاتي الذي ينجزه الناس في حياتهم العامة. وهذا يشير الى اننا بعيدون عن ان نطرحها بمعنى النشاط الانساني الشامل ، الذهني الذاتي والمادي الموضوعي » (د. طيب تيزيني، من التراث الى الثورة ، الجزء الاول ، ط . ثالثة ، دار دمشق للطباعة والنشر ، ١٩٧٩ ، ص ٨٣٢) . ويؤكدنفس الموقف في كتاب اخر قائلا : « ونحن حين نحدد ما قصدناه هنا بالثقافة ، نكون قد حرفنا النظر عن طرح « الثقافة » بمعناها العام المتضمن الانتاج الانساني بمجموعه ، المادي والفكري والروحي » .(انظر الى رقم ١٣ في قائمة المراجع ، ص ٣٢٥) .

تيزيني : « ان ما نقصده هنا بـ « الثقافة » هو النشاط والانتاج الفكري والروحي الذي ينجزه اناس متميزون بكونهم نشطين ومنتجين في هذا الحقل »(٢٧) . وبما ان تعريفه للثقافة لايختلف جذريا عن تعريف د. أنور عبد الملك فانه يحدد ما يعتبره أشكالا ثقافية على النحو الآتي : « فمن الأشكال الثقافية نعدد مثلا العلوم الطبيعية والاجتماعية والفلسفة والادب والفن » (٢٨) .

يتبين لنا مما تقدم أن الدكتورين أنور عبد الملك وطيب تيزيني يقدمان تعريفا للثقافة أقرب الى ان يكون تعريفا للثقافة الروحية . وحرى بالاشارة في هذا المجال الى ان الثقافة عبارة عن مجموعة من القيم المادية والروحية التي هي حصيلة نشاط البشر في الحقلين المادي والروحي . ومع أنه من الصعب الفصل والتمييز بين ما هو مادي وما هو روحي ، الا أنه من الضروري أن نقوم بمثل ذلك . ومن المعلوم أن هذا التمييزفي الثقافة ترجع اصولهوتمتد جذوره الىتقسيم العمل الىماديوروحي (*).

ومن الجدير بالملاحظة ان مثل هذا التمييز نسبي . ففي مجالات الثقافة المادية يوجد على الدوام جانب روحي . فليس ممكنا صنع ادوات العمل والمواد على وجه العموم التي تلبي احتياجات الانسان المادية بدون فكرات . ومن جهة اخرى فان مظاهر الثقافة الروحية مثل الافكار ، الصورالفنية ، القواعد والوصاياالاجتماعية . . . تتجسد فياشكال مادية معينة مثل الكتب ، المخطوطات ، المناظر . . .

وما يلفت الانتباه في ظروف الثورة العلمية ــ التكنولوجية أن تكاملا أكبر فأكبر يتم بين الثقافتين المادية والروحيــة . فمن جهة نجد ان دلالة الجانب المادي للثقافة الروحية تنمو باستمرار . ومن جهة اخرى نلحظ أن دور الأساس المادي للثقافة يزداد على الدوام . واكثر من ذلك فمن الضروري التمييز بيــن الاساس المــادي للثقافة ، والثقافة التي تشيد هذا الاساس . والواقع أن أسلوب الانتاج هو الاساس المادي للثقافة . أما الثقافة المادية فتتكون من القيم التي تعكس المستوى التقني للانتاج ومستوى الافادة من منجزات العلم والتقنية في الانتاج ومدى انسجام مهارات وخبرات العاملين مع مستوى التقنية والتنظيم العلمي للعمل . وبناء على ماتقدم فان التطور المادي ــ التقني للمجتمع يمثل الاساس الواقعي للتقدم في مجالالثقافةالمادية .

(*) يشير د. طيب تيزيني الى هذا التقسيم على النحو الاتي : « ان الثقافة بمعنى الانتاج الذهني الفكري المتميز ، هي حصيلة تقسيم العمل الى فكريوعضلي ، ذلك التقسيم الذي نشأ في نطاق تكون الطبقات الاجتماعية في اعقاب انحسار المجموعات البدائية المشاعية » . (من التراث الى الثورة ، ص٩٠٨).

ومن الجدير بالذكر ان الثقافة الروحية كذلك ، بالرغم من استقلالها النسبي ، تتحدد في تطورها بالتغيرات التي تحدث في الانتاج المادي . فتأثر الثقافة الروحية بالانتاج المادي ليس تأثراً مباشراً ، فهو يمارس تأثيره عبر قنوات كثيرة . يقول احد الباحثين : « ان تأثير الانتاج المادي في الثقافة الروحية يتم بواسطة العلاقات الاجتماعية والنظام السياسي للمجتمع الذي يتحدد طابعه باسلوب الانتاج»(٢٩) . وتؤكد باحثة اخرى الرأي نفسه قائلة : « لا تتبع الثقافة الروحية في تطورها بصورة اوتوماتيكية تطور الانتاج المادي . فالتغيرات والانقلابات في هذه المجالات المختلفة للنشاط البشري لا يمكن أن تتطابق بصورة تامة في الزمن »(٣٠) .

والسؤال الآن هو : ما هي الثقافة الروحية ؟ تضم الثقافة الروحية نتائج النشاط الروحي للانسان مثل العلم ، الفلسفة ، الادب ، الفن ، الاخلاقيات ، السياسة ، القانون ، والمؤسسات المعنية مثل المعاهد العلمية ، المدارس ، المسارح ، المكتبات ، المتاحف .. ومستوى تطور الانسان الاخلاقي والجمالي والعقلي .

بعد هذا التوضيح للثقافتين المادية والروحية احسب انني استطيع ان اعود ثانية الى كلام انصار الاشتراكية العلمية على ماهية الثقافة .

يميز د. انور عبد الملك داخل الثقافة بين فئتين من العناصر : عناصر تقوم على أساس العقل في المقام الاول ويطلق عليها اسم « الفكر » ، مثل النظريات والمذاهب السياسية والقانونية والاقتصادية والاجتماعية ، والعلوم الطبيعية والرياضية بفروعها والفلسفة بفروعها ، وعناصر تقوم على اساس الوجدان في المقام الاول ، وان استعملت معطيات العقل والعلم الى درجة غير قليلة ، مثل الادب ، والفنون على اختلافها . والحق ان د. انور عبد الملك لم يعتبر الدين لا من الفئة التي تقوم على اساس العقل ولا من الفئة التي تعتمد على اساس الوجدان . فهو ، أي الدين ، عنصر لاعقلي ، لا علمي ، ينتمي الى مجال الايديولوجيا . واذا كان د. انور عبد الملك واضحا في موقفه من موقع الدين في الثقافة ، فان محمود أمين العالم و د. طيب تيزيني لم يشيرا الى موقعه قط . اما د. حسين مروه فقد اتخذ موقفا وسطيا عندما بين العناصر والمكونات المحددة لوجود الثقافة . وفي هذا السياق يؤكد ان الدين احد مقومات الثقافة . يقول د. حسين مروه : « وينبغي أن نخص بالذكر هنا الفكر الفلسفي والفكر الديني كعنصرين مقومين بين مقومات الهيكلية الثقافية »(٣١) . وعلى الرغم من الخلاف بين الدكتور أنور عبد الملك وحسين مروه حول موقع الدين ، فمما لا شك فيه ان الدين يكون تارة ولا يكون تارة أخرى عنصرا من عناصر الايديولوجيا ، التي تعتبر عنصرا عاما للغاية في كل ثقافة وذلك لانها تعبر عن الوعي الذاتي الطبقي بصورة أعمق من

غيرها من اشكال التعبير الاخرى . والواقع ان الايديولوجيا تمثل الاساس الفكري للثقافة ، انها لبها . ولقد صدق أحد الباحثين عندما قال ان « الايديولوجيا توجه الثقافة حياتيا وسياسيا وفلسفيا – اخلاقيا وتدرجها بوعي في مهام الوقت العامة »(٣٢) .

وفي ضوء ما تقدم نقول ان موقف الايديولوجيا من الدين هو الذي يحدد وجود الدين كعنصر من عناصرها ، وبالتالي كونه مظهرا من مظاهر الثقافة الروحية في المجتمع . والملاحظ أن د. حسين مروه يعتبر الايديولوجيا جزءا عضويا من الثقافة. كما يؤكد انها « فكر طبقي المضمون ، طبقي التوجه ... »(٣٣) . واكثر من ذلك فان « هذا الواقع نفسه يحكمه قانون موضوعي يقضي بتغليب ايديولوجية الطبقة المسيطرة اقتصاديا وسياسيا على ايديولوجية الطبقات المسودة .. »(٣٤) . ولعلنا لا نأتي بجديد اذا قلنا ان د. حسين مروه في كلامه على الايديولوجيا متأثر بالفكر الماركسي . وللتدليل على ذلك يكفي ان نشير الى ما قاله ماركس بخصوص هيمنة الطبقة المسيطرة على المجتمع كله . يقول : « تعتبر افكار الطبقة المسيطرة في كل عصر افكارا مهيمنة . وهذا يعني ان تلك الطبقة التي تمثل القوة المادية المهيمنة في المجتمع هي في الوقت نفسه قوته الروحية المسيطرة ».(٣٥) وفي صفحة لاحقة يؤكد رأيه قائلا : « الطبقة التي تكون في حوزتها وسائل الانتاج المادي ، تستحوذ ، الى جانب ذلك ، على وسائل الانتاج الروحي ... » (٣٦) . مما لا شك فيه أن الايديولوجيا في أي مجتمع طبقي تحمل طابعا طبقيا . فهي « لا تنشأ الا لتعبر اراديا ، أو بصورة مقصودة ، عن حاجات فئة اجتماعية ، أو طبقة ، أو زمرة ما ذات ثقافة خاصة بها »(٣٧) . والطبقة المهيمنة تحاول أن تجعل من ايديولوجيتها الايديولوجياالسائدة. والحق أن الايديولوجيا تمثل نسقا متماسكا من الآراء والافكار السياسية والاخلاقية والفلسفية والجمالية ... التي تعبر عن وضع ومصالح واهداف طبقة اجتماعية معينة موجهة للمحافظة على النظام الاجتماعي الكائن أو تغييره . وتكون الايديولوجية في الغالب نتاج النشاط الواعي الذي يتطلب جهودا خاصة من فئة الايديولوجيين .

فاذا انتقلنا الى محمود امين العالم ، رأينا انه يعتبر الثقافة ذات طبيعة غير متجانسه ، سواء في صورتها المتصلة عبر التاريخ البشري ، أو في صورتها المحققة في كل مجتمع من المجتمعات . ويؤكد ان لكل مجتمع ثقافته القومية الخاصة به « برغم اختلاف الطبقات الاجتماعية واحتدام مصالحها في صراعات متنوعة داخل المجتمع الواحد »(٣٨) . ان الدارس للثقافات لا يملك إلا الاتفاق مع وجهة نظر محمود أمين العالم . فمما لاشك فيه ان لكل شعب من شعوب العالم ثقافته التي ينفرد بها وتميزه عن الشعوب الآخرى وتعكس خصوصيته . ومصداقا لوجهة النظر هذه

يقول احد الباحثين : « ثقافة كل شعب تكتسب ، مع الزمن ، خصائص وسمات خاصة تميزها عن ثقافات الاخرين جميعا ، وتسبغ عليها خصوصية لا مثيل لها »(٣٩) . ان طبقية الثقافة ينبغي الا تفهم على نحو ينفي وجود « لغة » ثقافية مشتركة بين **افراد المجتمع الواحد . فطبقية الثقافة لا تعني ، بالضرورة ، انها تتعارض مع قوميتها وتؤدي الى الغائها . يقول احد الباحثين : « لا ينفي الطابع الطبقي للثقافة الروحية** في المجتمع الطبقي انه يوجد جامعة معينة للثقافة والتقاليد والخبرات الثقافية تخص هذا أو ذاك من الشعوب ، هذا أو ذاك من العصور ككل »(٤٠) .

يظهر لنا مما تقدم ان الشعوب والعصور تتميز بثقافاتها ، فكل ثقافة تكشف عن هوية شعب من شعوب أو عصر من العصور . وهنا يصدق قول أحد الباحثين : « ولكل شعب ولكل عصر ثقافته ، وان اختلفت الصورة قليلا من فرد الى فرد»(٤١) . وجدير بالذكر في هذا السياق ، ان نقول أن محمود امين العالم لايفهم من اعترافه **بوجود ثقافة قومية خاصة بكل مجتمع غياب التناقض والتمايز الموجودين في المجتمع** الطبقي . ان الثقافة ذات طبيعة غير متجانسة ، وبالتالي ، فاننا نجد « في قلب هذه الثقافة ، ثقافات متنوعة متناقضة ، متمايزة ، تتعدد مستوياتها ودلالاتها تعبيرا عن الطبقات والمصالح الاجتماعية في المجتمع القومي الواحد »(٤٢) . وبالاختصار فان **الثقافة القومية الواحدة تمثل وحدة اضداد ، وتعبر عن الصراع الدائر بين الثقافات** التي تعكس مصالح طبقات وفئات المجتمع الواحد . أن الثقافة القومية التي تشكل عبقرية المجتمع الخاصة ، واصالته المتميزة ، واسلوبه الخاص في ممارسة الحياة ما هي الا « خلاصة الصراع الدائر في قلب المجتمع الواحد (الذي) يميز تاريخه **الخاص ، ويعبر عن التيار الاجتماعي السائد فيه »(٤٣) .**

ولعلنا لا نأتي بجديد اذا اكدنا ان رأي محمود امين العالم في ان الثقافة القومية الواحدة ليست متجانسة ينسجم تمام الانسجام مع ما يقوله انصار الاشتراكية العلمية في شتى بلدان العالم . ويكفي دليلا على ذلك ان نذكر ما يقوله أحد الباحثين المعاصرين الذين ينتمون الى مدرسة الاشتراكية العلمية . يقول : « توجد في المجتمع المنقسم الى طبقات متنازعة ومتصارعة ثقافات متعارضة يخص كل واحدة منها نظامها من القيم »(٤٤) .

وحري بالاشارة في هذا المجال الى ان د. طيب تيزيني يؤكد جوهر ما يقوله محمود امين العالم . **فهو يعترف بـ « وجود اطار ثقافي عام لمجموع الشعب » في المجتمعات التي ما تزال العدالة فيها مغتصبة ، بالرغم من أن هذه المجتمعات تضم**

بشكل عام ثقافتين ، احداهما هي ثقافة التقدم والمستقبل ، والاخرى هي ثقافة التخلف أو الوقوف عند حد معين من التطور .

انه لخطأ فاحش ان يستنبط المضمون كله للثقافة من مصالح هذه أو تلك من طبقات المجتمع ، وذلك لان مضمون الثقافة في أي مجتمع يضم بهذا القدر أو ذاك عناصر انسانية عامة . « ففي الثقافة الروحية للمجتمع المنقسم الى طبقات يقترن الطبقي بالانساني العام ... »(٤٥) . واكثر من ذلك فان الثقافة القومية الواحدة ليست مجردة مما هو انساني يهم الانسان من حيث هو انسان بغض النظر عن الزمان والمكان . ومن الثابت ان كل ثقافة تتطور باقامة صلات متبادلة وثيقة مع ثقافات الشعوب الاخرى . ومن المحقق انه توجد في ثقافة كل شعب بقدر كبير أو صغير عناصر من الثقافات الاخرى . ولو امعنا الفكر قليلا لوجدنا أن ثقافة كل شعب عبارة عن اتحاد عضوي مما هو اصيل ومقتبس . وليس نادرا ان نجد صعوبة في التمييز بين ما هو محلي وعالمي ، بين ما هو خاص وعام ، بين ما هو داخلي وخارجي . « وصحيح ان احدا لا يستطيع أن ينكر اصطباغ الثقافات بلون محلي مستمد من الظروف الخاصة للمجتمع الذي تظهر فيه ، ولكن هذه النواتج المحلية ذاتها تنطوي ، في كل الاحوال ، على جانب انساني لا يصح التغاضي عنه »(٤٦) .

وحرى بنا بعد هذا ان نقول ان انصار الاشتراكية العلمية في الفكر العربي المعاصر لا يكتفون بتأكيد طبقية وقومية الثقافات فحسب ، بل يؤكدون كذلك الطابع الانساني لها . والواقع ان انسانية الثقافة « تعبر عن جوهر الانسان من حيث انه انسان . وتعبر عن وحدة قوامه البشري ، كانسان يعيش ، ويفكر ويعمل ويحلم ويتعاطف ويحب ويتطلع الى حياة أكثر سعادة ، وأشد فعالية ، وافسح معرفة ، وارحب حرية وابداعا وتجددا »(٤٧) . ومن الطريف الاشارة الى أن محمود أمين العالم ، بالرغم من تمييزه بين طبقية وقومية وانسانية الثقافة ، الا انه لا يعترف بوجود حواجز فاصلة بينها . فالثقافة الانسانية ، بالنسبة اليه ، هي « خلاصة التجارب القومية والاجتماعية عبر التاريخ » . انها « العصير المركز النقي للعمل البشري كله » . اما الثقافة القومية الواحدة فهي ، من وجهة نظره ، « ثمرة التلاحم بين الثقافات القومية المختلفة ، وتلاقحها ، عبر التاريخ العام للبشرية » ، فضلا عن انها تمثل « خلاصة الصراع الدائر في قلب المجتمع » .

وعلاوة على ما تقدم فان محمود أمين العالم يفسر التداخل والتشابك بين جوانب الثقافة الطبقية والقومية والانسانية باعتبار الثقافة « ذات طبيعة مثلثة » . ومن الجدير بالملاحظة ان د. حسين مروه يفهم الثقافة على نحو مختلف بعض الشيء .

فاذا كان محمود أمين العالم يميز بين طبقية وقومية وانسانية الثقافة ، فان د. حسين مروه يعالج الثقافة مستخدما مقولتي « العمومية » و « الخصوصية » . فالثقافة ، كما يقول د. مروه ، « مرتبطة عضويا وديناميكيا بكل قوى الحياة التي تنتج تاريخ نمو المجتمع وتطوره المادي والروحي »(٤٨). ومعنى ذلك ان قوى المجتمع الانتاجية المادية والروحية تمثل خصوصية الثقافة . اما عموميتها فتعني أن الثقافة ترتبط « ارتباطا عضويا وديناميكيا أيضا بقوى النشاط الاجتماعي خارج هذا المجتمع كذلك ، أي بسائر القوى المنتجة لتاريخ التطور المادي والروحي للعالم كله ... »(٤٩). والمهم أن د. حسين مروه يؤكد أن الخصوصية والعمومية في الثقافة لا تنفصلان . فهما متحدتان اتحادا لا سبيل الى فكه ، لان مثل ذلك ، اذا حدث ، يؤدي الى لاتاريخية الثقافة ، الى ان تفقد الثقافة مقوماتها . ومن المؤكد ، بالنسبة الى د. مروه ، أن البشرية لم تعرف مجتمعا انقطعت فيه الصلة بين خصوصية الثقافة وعموميتها . « فتاريخ البشرية لم يعرف قط مجتمعا انغلقت عليه — كليا ونهائيا — ابواب التواصل بين « خصوصيته » التاريخية و « عمومية » العلاقة الموضوعية التي توحد كل « الخصوصيات » المتعددة المتنوعة »(٥٠) .

لعل من النوافل القول ان الشعوب غير منعزلة عن بعضها البعض ، ففي كل العصور نجد ان التأثير المتبادل للشعوب والثقافات في بعضها البعض عملية مستمرة تضعف احيانا وتشتد احيانا اخرى . ونزيد في التحديد فنقول انه صعب للغاية ان نسمي شعبا تطورت ثقافته في عزلة تامة ومطلقة عن ثقافات الشعوب الاخرى . فمن المؤكد انه لا توجد ثقافات منعزلة بصورة مطلقة زمانيا ومكانيا . وهنا يصدق راي احد الباحثين عندما يقول « ان التفاعل المتبادل للشعوب والتأثير المتبادل لثقافاتها ، ناموس العملية التاريخية — الثقافية »(٥١) .

وبالاجمال يمكن القول : ان الثقافة في المجتمع المنقسم الى طبقات ، غير المتجانس ، تتكون من عناصر طبقية وقومية وانسانية . بكلمات اخرى : الثقافة في المجتمع الطبقي تتسم بسمات تبدو متناقضة ، وذلك لانها تشكل وحدة اضداد . وبناء على ذلك فطبقية الثقافة لا تعني تجردها مما هو قومي ، كما ان انسانية الثقافة لا تنفي قوميتها . ومصداقا لهذا الراي يقول فيلسوف متحمس جدا للاممية: « الثقافة العالمية ليست بلا قومية »(٥٢) .

★ ★ ★

المراجع

(١) أ . ل . اووليدوف ، نحو تحديد خصوصية الثقافة كظاهرة اجتماعية ، مجلة العلوم الفلسفية موسكو ، العدد ٢ سنة ١٩٧٤ ، ص ٢٩ .

(٢) باليرِ وزالوبين ، الشعب والثقافة في كتاب « الثقافة ، الابداع ، الانسان » ، موسكو ١٩٧٠ ، ص٣٦

(٣) ي . ف . بوغولوو بوفا ، الثقافة والمجتمع (مسائل التاريخ والنظرية) ، دار نشر جامعة موسكو ، ١٩٧٨ ، ص ٢٠٣ .

(٤) مجموعة من المؤلفين ، اسس نظرية الثقافة الماركسية ـ اللينينية ، موسكو ، ١٩٧٦ ، ص ١٧ .

(٥) الموسوعة السوفياتية الكبرى ، ط ٢٠ ، مجلد ٢٤ ، ص ٣٠ .

(٦) د. انور عبد الملك ، دراسات في الثقافة الوطنية ، منشورات دار الطليعة، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ١٩ .

(٧) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٨ ، ٩ ، ١٠) المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(١١) محمود امين العالم ، الثقافة والثورة ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ١٧٤ .

(١٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(١٣) د. طيب تيزيني ، حول مشكلات الثورة والثقافة في « العالم الثالث » الوطن العربي نموذجا ، طبعة ثانية ، دار دمشق للطباعة والنشر ، ١٩٧٣ ، ص ٣٤٤ .

(١٤) مرجع رقم ٦ ، ص ١٩٠ .

(١٥) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(١٦) المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(١٧) المرجع رقم ١١ ، ص ١٨٨ .

(١٨) المرجع السابق ، ص ٢١٥ – ٢١٦ .

(١٩) المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(٢٠) المرجع السابق ، ص ٨ .

(٢١) المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

(٢٢) المرجع رقم ١٣ ، ص ٣٤٦ .

(٢٣) أ.م. روومبيا نتسيف، الافكار الليينينية حول ترابط السياسة والثقافة ، مجلة « مسائل الفلسفة » ، موسكو ، العدد ١ ، ١٩٧٥ ، ص ٣٣ .

(٢٤) المرجع رقم ١١ ، ص ١٦٣ .

(٢٥) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢٦) المرجع رقم ٦ ، ص ٢٨٧ .

(٢٧) المرجع رقم ١٣ ، ص ٣٢٥ .

(٢٨) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢٩) المرجع رقم ٤ ، ص ٤١ .

(٣٠) المرجع رقم ٣ ، ص ١٦٥ .

(٣١) اتحاد الكتاب اللبنانيين ، الثقافة الوطنية في لبنان ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٠ .

(٣٢) مجموعة من المؤلفين ، الصراع الايديولوجي والثقافة المعاصرة ، دار « العلم » للنشر ، موسكو ، ١٩٧٢ ، ص ١٧ .

(٣٣) المرجع السابق ، ص ١٢ .

(٣٤) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(٣٥) ك.ماركس وف. انجلز ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ٣ ، ط ٢ ، ص ٤٥ (باللغة الروسية) .

(٣٦) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٣٧) د. حافظ الجمالي ، الايديولوجيا والفلسفة ، مجلة الفكر العربي ، بيروت العدد ١٥ ، أيار (مايو) حزيران (يونيو) ، ١٩٨٠ ، ص ٨ .

(٣٨) المرجع رقم ١١ ، ص ١٦٧ .

(٣٩) المرجع رقم ٤ ، ص ٤٩ .

(٤٠) غ.ب. فرانتسوف ، الفلسفة وعلم الاجتماع ، دار « العلم » للنشر ، موسكو ، ١٩٧١ ص ٥٩٦ .

(٤١) محمود محمود ، نظرة جديدة ألى معنى الثقافة ، مجلة الفكر المعاصر ، القاهرة ، العدد ٦٢ ، ابريل ١٩٧٢ ، ص ١١ .

(٤٢) المرجع رقم ١١ ، ص ١٦٨ .

(٤٣) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٤٤) المرجع رقم ٤ ، ص ٢٨ .

(٤٥) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٤٦) د. فؤاد زكريا ، اراءنقديةفي مشكلاتالفكر والثقافة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهـرة ، ١٩٧٥ ، ص ٤٢ .

(٤٧) المرجع رقم ١١ ، ص ١٦٧ .

(٤٨) المرجع رقم ٣١ ، ص ٧ .

(٤٩) المرجع السابق ، ص ٨ .

(٥٠) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٥١) المرجع رقم ٤ ، ص ٥٠ .

(٥٢) ف.أ. لينين ، مجموعة المؤلفات الكاملة ، مجلد ٢٤ ، ص ١٢٠ (باللغة الروسية) .

★ ★ ★

الرّدافة

على ضوء بعض العلاقات القبلية في شمال شرق الجزيرة العربية قبل الإسلام

(في القرن السادس ومطلع القرن السابع للميلاد)

د. صالح دراركة

(الجامعة الاردنية)

المقدمــــة :

تتصل الردافة بالكيانات السياسية العربية التي قامت في شمال شرقي الجزيرة العربية قبل الاسلام ، لذلك سيكون اعتماد هذه الدراسة على المصادر الاسلامية ، لان السجلات البيزنطية والسريانية القديمة تخلو مما يمكن ان يوفر مادة يقوم عليها البحث ، ماعدا اشارات مقتضبة جاء بها (تنوز وبروكوبيوس وجون مالالاس وثيوفانس ويوشع العمودي)(١) . وفي مجال الحفريات نجد ان نقوشا قليلة قد عثر عليها في المنطقة الوسطى والشمالية من الجزيرة العربية ، وهي رقم اهمية بعضها لاتكشف الا قليلا من تاريخ الجزيرة العربية القديم . وسنعرض الى ما يهم دراستنا من هذه النقوش أثناء بحثنـا(٢) .

والمصادر الاسلامية التي تعود الى فترة متأخرة ـ القرن الثاني الهجري ومابعده ـ تعتمد في بعضها على الرواية الشفوية في نقل اخبار عرب قبل الاسلام ، وفي ذلك مجال خصب للزيادة والنقصان ومعايب اخرى لاتخفى على الدارسين(٣) . ومن أبرز رواة هذه الحقبة ابن الكلبي « هشام بن محمد ت ٢٠٤ أو ٢٠٦ هـ » عالم الانساب واخبار العرب وايامها ووقائعها ومثالبها ، والذي يشكل موردا هاما من موارد أخبار العرب قبل الاسلام ، ولاسيما الاخبار المتعلقة بمدينة الحيرة وحكامها (٤) . وقد ضاع الكثير من مؤلفات ابن الكلبي مثل « كتاب ملوك كنده » و « الكلاب الاول » و « الكلاب الثاني »(٥) وهذا يزيد البحث صعوبة وان كان ابن الكلبي قد قال عن نفسه : « كنت أستخرج اخبار العرب وانسابها آل نصر بن ربيعه ومبالغ اعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة وفيها ملكهم وامورهم كلها »(٦)

ويبدو ان ابن الكلبي استفاد من نقوش وتواريخ الحيرة وهذا ما اكسب رواياته قيمة خاصة لاسيما ان بعض اقواله قد أيدتها البحوث الحديثة كاكتشاف لوح امرىء القيس بن عمرو اللخمي(٧) . ومع هذا فهو متهم بالكذب والتزوير وقيل عنه « ليس بثقة » (٨) . ولاشك انه قد كان في الحيرة كتابات ، وهي التي تحولت في القرن السادس الميلادي الى مركز مزدهر من مراكز النصرانية ، وانتشرت فيها الاديرة والاسقفيات ، ولاشك ايضا بأنه كان لاهل الحيرة معلومات عن الروايات الفارسية(٩) . غير ان مايؤسف له ان روايات ابن الكلبي متناقضة حتى فيما يتعلق بالخبر الواحد ، كما نجد في بعضها اغراقا في المبالغة والخيال ، وهذا يلمس في روايات اهل الجنوب بشكل عام ، ولعل هذا عائدالى محاولة رواة عرب الجنوب منافسة عرب الشمال الذين تفوقوا عليهم بالنبوة والاسلام ، كما كان لرواة المسلمين دور في تقليل شأن أهل الجاهلية بسبب التحول الكبير الذي جاء به الاسلام . وقد يكون المسؤول عن اختلاف روايات ابن الكلبي رواته المختلفين(١٠) .

ويبدو أن أخبار القبائل والامارات القبلية في الشمال أكثر وضوحا من أخبار عرب الجنوب ، وربما كان ذلك عائدا الى عناية المؤرخين السريان واليونان والفرس بهذه المنطقة من جهة وقربها من الاسلام من جهة أخرى . ولهذا يرى (الثايم F.Altheim) ان اخبار شمال شبه الجزيرة أقرب الى الواقع التاريخي(١١) .

ويقال عن الشعر المنسوب للجاهلية ، كمادة تاريخية ، ما يقال عن الرواية ، فعلاوة على انه انتقل بالرواية فهو مجال خصب للانتحال والمبالغة والعاطفة والخيال ، كما ان عمر الشعر قصير لايزيد على العشرين وماية عام قبل الاسلام أي مابين ٥٠٠ ـ ٦٢٢ م(١٢) . وهناك من ينكر وجود شعر جاهلي جملة وتفصيلا (١٣) ، غير ان مايقال عن عيوب الشعر الجاهلي لا تنفي وجوده ، لأن الشعر ظاهرة لازمت العرب وذكرها القرآن الكريم ولاسبيل الى نكرانها ، وان كان من واجب المؤرخ ان يتعامل مع هذه المادة بحذر وانتباه ، فالشعر لايستغنى عنه لمعرفة احوال العرب قبل الاسلام ، وبخاصة عرب الشمال لأن ما وصلنا من شعر اكثره منسوب لهم .

ومن المواد التي يمكن للمؤرخ الاعتماد عليها غير النقوش والآثار « النميّات » ولم يعرف عرب الشمال قبل الاسلام عملة خاصة بهم ، اذ كانوا يتعاملون بنقود كسرى وقيصر ، اي بالدراهم الفضية والدنانير الذهبية (١٤) . كما كانت لهم أساليبهم الخاصة في البيوع والمقايضات(١٥) .

ورغم كثرة العقبات التي تواجه الباحث في تاريخ العرب قبل الاسلام فقد كتب فيه الكثير غربا وشرقا ، ومن بين الدراسات الحديثة القريبة من موضوع بحثنا دراسة

لروثشتاين(١٦) عن تاريخ السلامة اللخمية ، ودراسة لجونار اولندر(١٧) عن ملوك كنده ودراسة ثالثة لكستر (١٨) عن الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية . وتأتي أهمية هذه الدراسات لصلتها بالحيرة التي نشأت الردافة فيها ، وقد أفاد هؤلاء الدارسون من المصادر العربية والسريانية واليونانية ، ومع هذا لا تلقي هذه الدراسات اضواء على موضوع الردافةاللهم ان كستر مر بها مرورا عابرا ، ولا تخلوهذه الدراسات من بعض الهنات(١٩) التي أخذت عليها ، ويشفع لهم في ذلك ماذكرناه عن طبيعة البحث في تاريخ العرب قبل الاسلام ، وتبقى هذه الدراسات ذات قيمة هامة حتى يظهر جديد في موضوعاتهـــا .

وفي العربية كتابات كثيرة عن عرب قبل الاسلام ليس هنا مجال التعرض لها،واما المصادر العربية الاولية التي ذكرت الردافةفقد تردد ذكرها اثناء البحث(٢٠) . وانما اردت بهذه المقدمة الموجزة التعريف ببعض مصادر الدراسة والصعوبات التي تعترض الباحث في أحوال هذه الفترة ، فالردافة من ظواهرها ولم يعرض لها من قبل ، ولعل استقصاء تاريخها ونشأتها ودورها في العلاقات القبلية يضيف جديدا الى تاريخ حقبة هامة من تاريخنا ، طالما انه من المتعذر حاليا كتابة تاريخ كامل وصادق لعرب قبل الاسلام ، وهذا لايغني عن البحث في جوانب هذا التاريخ فهو القاعدة التي يرتفـع فوقها بنيان التاريخ العربي العـــام .

الردافة ودورها في العلاقات القبليـة

والردافة لغة تعني التبعية ، والرديف هو التابع ــ وجاء القوم ردافى أي يتبع بعضهم بعضا(٢١) ، وفي هذا المعنى قول خزيمة(٢٢) بن مالك بن نهد :

اذا الجوزاء اردفـت الثـريا ظننت بآل فاطمـة الظنونـا

وللردافة في اللغة معان غير ماذكرنا(٢٣) . وارداف الملوك فيالجاهلية الذين كانوا يخلفونهم في القيام بأمر المملكة(٢٤) . وفي كتاب اسرار البلاغة (٢٥) «ارداف الملوك في الجاهلية الوزراء في الاسلام » وشبيه بهذا المعنى قول لبيد(٢٦) الشاعر :

وشـــهدت اندية الافاقـة عاليـا كعبي وارداف الملوك شـــهود

وفيالمحكم:«هم الذين كانوا يخلفونهم نحو اصحاب الشرط فيدهرنا هذا»(٢٧)وكان الردف « بكسر فسكون » هو الذي يجلس على يمين الملك فاذا شرب الملك شرب الردف قبل الناس واذا غزا الملك قعد الردف في موضعه وكان خليفته على الناس حتى يرجع من غزاته(٢٨) .وقد نشأت هذه الوظيفة في النصف الثاني من القرن

السادس الميلادي في بلاط الحيرة ، وهي تعكس حالة ضعف ملوك الحيرة وحاجتهم الى تأييد القبائل فمنحوا أحد شيوخ القبائل القوية والقريبة منهم هذا الامتياز ليكونوا عونا لهم في تأييد سلطانهم كما سيتبين أثناء هذه الدراسة . وأصبحت الردافة مجالا للفخر فهذا رجل من بني تميم يفخر بها قائلا :

ومن يناد آل يربوع يجب   يأتك منهم خير فتيان العرب

المجلس الأيمن والردف المحب(٢٩) .

وقد ذكرت المصادر عددا من القبائل التي فاز رؤساؤها بهذا المركز ذي الخصائص المالية والعسكرية(٣٠) ، علاوة على كونه مظهرا من مظاهر الشرف والرياسة . والقبائل التي كانت لها ردافة الملوك في الجاهلية هي ، تميم ، وبكر وتغلب ابني وائل بن ربيعه ، وضبه بن اد وعامر بن صعصعه من هوازن(٣١) . وكانت منازل هذه القبائل تمتد ما بين منطقة الحجاز ومنطقة الحيرة في نهاية القرن السادس ومطلع القرن السابع الميلادي . فقبيلة تميم — التي اشتهرت بالردافة اكثر من غيرها — كانت تقطن مابين وادي الباطن الى البحرين واليمامة ، وقد تمتد جنوبا الى واحة يبرين وشمالا الى غرب الفرات بموازاة الحيرة(٣٢) . ومن اشهر بطون تميم « يربوع » الذي كانت فيه الردافة ، ومن منازله الحزن أو الحزل(٣٣) وجليمة(٣٤) ، واعشاش(٣٥) وروضة الخيل(٣٦) . ويتضح من هذه المواقع ان منازل تميم بعامة ويربوع بخاصة انما تقع على طرق القوافل التي تربط مابين جنوب وغرب الجزيرة وشرقها وشمالها ، وتعتبر اليمامة في الوسط عقدة هذه المواصلات التي كانت السبب الاكبر في التنافس بين الدول القوية حينذاك للسيطرة على الجزيرة ، كما كانت سببا في التنافس بين القبائل للسيطرة عليها ايضا(٣٧) .

ويجاور تميم في الشمال اسد وفي الجنوب الغربي باهلة وغطفان وكذلك امتزجت تميم في منازلها ببطون من عبد القيس وحنيفه وخاصة على الساحل الشرقي والجنوبي ، كما امتزجت ببكر وتغلب في الشمال(٣٨) .

وقد برز دور تميم المهم في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، نتيجة لضعف امراء الحيرة ، واضطراب السلطة في بلاد فارس ، ثم بسبب تنافس الحيرة ومكة في كسب ولاء هذه القبيلة ، وفي سبيل هذه الغاية منحها ملوك الحيرة امتياز الردافة ، وجعل لها زعماء مكة الايلاف واشركوهم في النشاط المكي(٣٩) . وقد انعكس دور تميم هذا على نفوذهم في الاسواق مثل « عكاظ » و « دومة الجندل » كما وتحالفت

مجموعة من القبائل مثل كلب وأسد وبطون من مضر مع تميم وذلك بحكم المصلحة والجــوار(٤٠) .

ويؤكد ابن سعيد الاندلسي أهمية تميم قائلا : « كان لهم في الجاهلية صيت عظيم، وكان منهم من يأخذ المرباع كما يفعل الملوك، وكانت لهم الافاضة بالناس من عرفات، وفيهم يقول الرسول (ص) : « بنو تميم هم أشد امتي على الدجال »)(٤١) . ويفخر جرير الشاعر بقومه قائلا : «نحن أهل الذهب الاصفر والاحمر المعتصر ـ يعني الخمر ـ نخيف ولانخاف ونطعم ولانستطعم ، ونحن حي لقاح» (٤٢) .

وتعتبر تميم من البيوتات المعدودة عند العرب ، وتشمل بطونا عدة فيهــا العدد والشرف ، فقد نقل ابو عبيده عن عمرو بن العلاء ، أن بيوت العرب بعــد بيت هاشم ابن عبد مناف في قريش ، ثلاثة بيوت ، ومنهم من يقول ان بيوت العرب اربعة : اولهــا بيت آل حذيفة بن بدر الفزاري ـ بيت قيس ـ وبيت آل زراره بن عدس الدارميين ـ بيت تميم ـ وبيت آل ذي الجدين بن عبد الله بن همام ـ بيت شيبان ـ وبيت بني الديان من بني الحارث بن كعب ـ بيت اليمن .

واما ابو البقاء ـ صاحب المناقب المزيديه ـ فيجعل البيوت ثلاثة ، اولها : « بيت تميم ، بنو عبد الله بن دارم ومركزه بنو زراره ، وبيت قيس فزاره ومركزه بنو بدر ، وبيت اليمن وهم بنو الحارث بن كعب ومركزه بنو عبد المدان ، وقال آخرون ان البيت الثالث في معد ايضا وهو بيت شيبان بن ثعلبه بيت بكر بن وائل ومركزه بنــو قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن ذي الجدين »(٤٤) . وتبدو قوة تميم من خلال ايامها مع القبائل العربية القوية كشيبان وتغلب واحرازها النصر في اغلب الحروب(٤٥) . وظل بنو تميم يعتزون بقوتهم ويفاخرون بماضيهم حتى في ظل الاسلام ، فقد خاطب عطارد بن حاجب بن زرارة زعيم تميم الرسول (ص) عندما وفد عليه مع وفد تميم قائلا « الحمد لله الذي له الفضل علينــا وهو اهله الذي جعلنا ملوكا ، وجعلنا اعز أهل المشرق . . »(٤٦)

وفي مثل هذا المعنى يقول الزبرقان(٤٧) :

نحن الملــوك فلا حي يقاربنــا   منا الملوك وفينا يؤخذ الربع

ويستفاد من المصادر ان الردافة بدأت اولا في بطن يربوع من تميم ، وتتصل هذه الظاهرة بقيام امارة الحيرة وبالسياسة الفارسية المتعلقة بالمنطقة العربيــة وبالعلاقات مع بيزنطه ، كما أن لها علاقة بحركة القبائل العربية نحو الشمال والشمال

الشرقي على طول الحدود الفارسية ، وكانت هذه الحركة واضحة وكثيفة في نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع الميلادي ، ولهذه الحركة البشرية نحو العراق علاقة ايضا بضعف النفوذ الفارسي نتيجة الاضطرابات الداخلية حتى ان الفرس كانوا يضطرون الى دفع الاتاوة لهذه القبائل(٤٨) .

وتعلل المصادر العربية اسباب الهجرة القبلية نحو جنوب العراق ومنطقة الفرات بدافع الجدب والجوع ، فقد ذكر الطبري ان بلاد العرب كانت ادنى البلاد الى فارس وكانوا من أحوج الامم الى تناول شيء من معايشهم وبلادهم لسوء حالهم وشظف عيشهم(٤٩) . فسار جمع عظيم نحو بلاد فارس اما سلما او بالاغارة ، وفي أغلب الاحيان يكون دخول القبائل العربية أرض العراق أو استقرارهم على الحدود في حالات الاضطراب داخل فارس ، وقد تميزت دولة الفرس في نفس الفترة ـ النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ـ بالصراع على العرش والاضطرابات المذهبية والحروب مع الروم(٥٠) .

يعلل ستراتوس ـ مؤلف كتاب بيزنطه في القرن السابع الميلادي ـ حركة القبائل هذه بقوله : « ان القبائل التي اتجهت صوب الحدود الفارسية سرعان ما اصبحت تحت التأثير الفارسي . . حيث كانت القبائل تبحث عن مراع مناسبة لقطعانها في كل صيف ، وهذه حاجة سنوية ماسة . . وتحصل هذه القبائل على معونات مالية ـ اما نقدا أو نوعا ـ من الدول التابعة لها ـ فارس او بيزنطة ـ وذلك مقابل حماية حدود هاتين الدولتين من هجمات القبائل الأخرى . . واذا ما تأخر دفع هذه المعونات فلا شيء يضمن هذه القبائل من الاغارة على أراضي الدولة . . »(٥١) ويصف ابو البقاء حالة الجوع عند القبائل العربية الشمالية قائلا : « ان بلاد مضر اجدبت سبع سنين متوالية حتى هلكوا واكلوا الوبر بالدم فسموه « العلهز » وبسبب هذا القحط وفد حاجب بن زرارة بن عدس بن زيد من بطن دارم من تميم على كسرى واستأذنه ان يسمح لقومه بدخول السواد »(٥٢) . وهذه الرواية تفيد دخول بطون من تميم الى فارس سلما أي منطقة السواد « حول الكوفة » وهذا يشير الى ان الفرس كانوا يعملون على استخدام العرب وفقا لمصالحهم ، غير ان طاعة العرب للفرس لم تكن دائمة ، فقد ذكرت المصادر ان العرب الذين دانوا للفرس انما هم الذين قربت دارهم من أرض الفرس فكان هؤلاء يدينون لهم تارة ويحاربونهم تارة اخرى ، وكان أكثر مايظفر به الفرس من العرب أن يكفوا عن الاغارة على السواد واطراف البلاد « وكانت الارض التي تلي ارض الملوك مخصبة فرعاها العرب باذنهم وادوا الأتاوة عنها الى الفرس ماداموا في أرضهم »(٥٣) .

وكانت العرب مع الحيرة على ثلاثة اصناف :

١ ـ القبائل المستقلة (اللقاح) التي تغير على ممتلكات الحيرة وكانت تغزى بدورها من قبلهــم .

٢ ـ القبائل « المتحالفة » التي عقدت احلافا مع امراء الحيرة وفق شروط مبينة .

٣ ـ القبائل « المجاورة » التي ترعى في جوار الحيرة ، وكانت هذه القبائل خاضعة لامراء الحيرة . غير ان هذه القبائل كانت تصانع من قبل هؤلاء الامراء الذين يحاولون ان يكسبوا ودها ، وكان اقرب الاحياء الى الحيرة ربيعة وتميم(٥٤) .

ومن بين التي عرفت باللقاح ـ أســد بن خزيمة وغطفان بن سـعد وكانوا لا يعرفون في العرب الا بالحليفين ، وكانوا لايدينون للملوك آل نصر ، وظلوا على ذلك الى أيام النعمان الاصغر(٥٥) ، كذلك كانت قريش وكنانة « لقاح » لاتدين للملوك ، فقد انكر ابو زمعة « الاسود بن المطلب » اعلان قيصر الروم لعثمان بن الحويرث ملكا على مكة ، وصاح صيحته المشهورة : « املك بتهامة الا ان قريشا لقــاح لا تملك ولا تملك »(٥٦) .

وفي المجموعة الثانية من القبائل سليم وهوازن ، وفي علاقة هاتين القبيلتين مع امراء الحيرة يقول ابو البقاء : « كانت سليم وهوازن تواثقهم ولاتدين لهم ، ويأخذون لهم التجاير فيبيعون لهم بعكاظ وغيرها فيصيبون معهم الارباح، وربما اتى الملك منهم الرجل والنفر فيشهدون مغازيه ويصيبــون معه من الغنائم وينصرفون ، ولم تكن لطائم الملوك وتجارتهم تدخل نجدا فما وراءه الا بخفر من القبائل » (٥٧) .

وفي المجموعة الثالثة من القبائل كانت ربيعة وبعض بطون تميم(٥٨) .

لم يكن هذا التصنيف ثابتا ، فقد تنتقــل القبيلة من حالة الخضوع والولاء الى حالة « اللقاح » فقد خرجت شيبان وبطون من بكر بن وائل على الفرس وامراء الحيرة في حرب ذي قار المشهورة ، كما ان بني دارم من تميم عادت لقاحا لعمرو ابن هند بقية أيام ملكه الى ان هلك بعد ان أوقع فيهم يوم اواره(٥٩) .

وازاء هذا التدافع القبلي والاغارة الدائمة على اطراف العراق كان لابد لامراء الحيرة من أن يتنازلوا عن بعض امتيازاتهم ويمنحوها لرؤساء القبائل القوية التي تهددهم وتكثر من الاغارة على اطرافهم ، فنشأت لذلك الردافة .

ويوضح ابو عبيده هذا المعنى بقوله : « لم يكن احد من العرب أكثر غـارة على أهل مملكتهم (الحيرة) من بني يربوع فصالحوهم على ان جعلوا لهم الردافة وان يكفوا عن الاغارة على أهل العراق »(٦٠) . واول من ردف من تميم « عتاب بن هرمي بن رياح بن يربوع » ثم ابنه عوف ثم يزيد وذلك على عهد المنذر بن ماء السماء في بعض المصادر والنعمان بن الشقيقة بن المنذر في بعضها الآخر(٦١) . وفي الرواية التالية لابي البقاء يتضح ضعف امراء الحيرة وقوة يربوع حيث يقول : « لما فازت يربوع بالردافة صارت لهم ضربة لازم عليهم لا يقدرون على عزلهم عنها ولانقلها عنهم الى غيرهم ، فكان الملك مع بني يربوع في الردافة كالمحجور عليه »(٦٢) .

وقد افتخر جرير الشاعر اليربوعي بالردافة حيث يقول :

ربعنا واردفنا الملوك فظللـوا　　　وطاب الاحاليب التمام المنوعـا(٦٣)

واعتبر رجال تميم اسلافهم ملوكا لانهم كانوا يفدون على الملوك ، وابرز وافديهم حاجب بن زرارة الدارمي الذي وفد على كسرى ورهنه قوسه(٦٤) ، وللردافة التي كانت فيهم كما هو واضح من قول عطارد بن حاجب امام الرسول(ص) الذي تقدم ذكره . وللردف اتاوة يأخذها من جميع مملكة الحيرة ، او ان له حصة من واردات الامـارة وعائدات الحرب وذلك في قول جرير(٦٥) :

وكان لنـا خـرج مقيم عليكـم　　　واسلاب جبار الملوك وجامله

وفي مبلغ العز الذي وصلوه بالردافة ، وفي فضلهم وتفوقهم على غيرهم ، وفي حقهم على بقية القبائل بالغ شعراء تميم بعامة ويربوع بخاصة في شعرهم ، ومثال ذلك قول الزبرقان(٦٦) وهو شاعر دارم من تميم أمام الرسول (ص) يوم الوفادة :

نحن الكرام فلاحـي يعادلنا　　　منا الملوك وفينا تنصب البيـع
وكم قسرنا من الاحيـاء كلهم　　　عند النهاب وفضل العز يتبـع

ونسب الى الزبرقان في نفس المناسبة قولـه :

اتيناك كيما يعلم الناس فضلنا　　　اذا احتفلوا عند احتضار الموسم
بانا فروع الناس في كل موطن　　　وان ليس في ارض الحجاز كدارم
وان لنا المرباع في كل غـارة　　　تغير بنجد او بأرض الاعاجم(٦٧)

وهذا قول لجرير يفضل فيه احدى زوجتي الفرزدق على الاخرى لانها من بيت الردافة من تميم والاخرى من بني شيبان النصارى من بكر :

وماعدلت ذات الصليب ظعينة　　　عتيبة والردفان منها وحاجب(٦٨)

وقد استمرت الردافة في يربوع حتى ظهور الاسلام ، فكان آخر من ردف منهم لملوك الحيرة مالك بن نويرة اليربوعي(٦٩) .

ويستفاد من اشعار يربوع تفوق هذا البطن من تميم على بقية البطون ولذلك صارت اليه الردافة(٧٠) . ثم اخذ بيت زرارة ينافس يربوع وذلك في زمن حاجب بن زرارة الذي وفد على كسرى وقيل البسه التاج(٧١) ، وكان له حظوة في بلاط الحيرة وفي عهد ولده عطارد صاحب وفد تميم الى الرسول صلى الله عليه وسلم(٧٢) .

وربما كان لعدي بن زيد العبادي دور في ردافة يربوع ، فقد ذكر الاصفهاني ان عديا لم يكن يؤثر على بلاد يربوع مبدى من مبادي العرب(٧٣) . وقد اختلف في نسب عدي هذا ، فوصف في بعض المصادر بأنه من الاشراف ونسبه البعض الاخر الى العباد من سكان الحيرة ، كما الحقه بعض آخر الى تميم(٧٤) . وعمل عدي ترجمانا لكسرى ابرويز وكاتبا له بالعربية ، وهو الذي وصف النعمان لكسرى واشار عليه بتوليته ، واحتال في ذلك حتى ولاه من بين اخوتـه ، ذلك بحسب ما تقوله الرواية العربيــة(٧٥) .

وعلاوة على كون يربوع من البطون ذات العدد والشرف فقد كانت تقيم على طريق مكه وجنوب العراق الى البصرة ، ومن منازلها المشهورة « طخفه » الموضع الذي حدث فيه اليوم المشهور بسبب الردافة(٧٦) . وذلك ان حاجب بن زرارة ـ زعيم دارم المشهور ـ رغب في نقـل الردافة الى قوم دارم بعد وفاة عتاب بن هرمي ، واخبر المنذر بن ماء السماء برغبته هذه واعلمه ان الردافة لاتصلح لعوف بن عتاب لحداثة سنه وطلب اليه ان يجعلها لرجـل كهل هو الحارث بن بيبه المجاشعي مـن دارم . فدعا الملك بني يربوع واخبرهم ان الردافة لعتاب وقد هلك ، وابنه هذا لم يبلغ ، وسألهم ان يعقبوها لاخوتهم من بني دارم ، وأوضح لهم انه يريدها للحارث بـن بيبه . واجاب بنو يربوع الملك بان اخوانهم إنما سألوه ذلك حسدا لهم على مكانتهم من الملك ، واخبروه ان عوف بن عتاب على حداثة سنه احرى للردافة من الحارث بن بيبه ، وصرحوا له بانهم لن يدعوها ، وامام اصرار بني يربوع هذا انذرهم الملك بالحرب ان لم يفعلوا ، فكان جوابهم ان يدعهم الملك ثلاثة ايام ثم ينذرهم بالحرب ، وكانت الحرب التي اطلق عليها يوم « طخفه » . وقد انتصرت يربوع ومعها البراجم على عساكر المنذر ـ وقيل عساكر النعمان ـ واسروا ابنه قابوس وقيل اخوه حسان أيضا حسب رواية ابي عبيدة في النقائض(٧٧) .

وقد ورد اسم قابوس في المصادر العربية مرتين في السلالة اللخمية ، في الاولى قابوس بن المنذر بن امرىء القيس الملقب بماء السماء أو « ابن ماء السماء » الذي

تولى عرش الحيرة بعد اخيه عمرو بن هند(٧٨) ، ويرجح ان مدة ملكه كانت اربع سنوات مابين ٥٦٩/٥٧٠ - ٥٧٣/٥٧٤ م(٧٩) . وفي الثانية قابوس بن النعمان وكنيته النعمان الاخير - الذي قتله كسرى ابرويز - « ابو قابوس » ولم يرد اسمه ضمن ملوك الاسرة اللخمية ، وفي الاخذ بروايتي أبي عبيدة وابن الكلبي القائلتين بن قابوس هو ابن المنذر الذي اشترك في قتال يربوع يوم طخفه والذي تسبب في حدوثه حاجب بن زرارة ، لان حاجبا هذا استعمل على صدقات تميم بعد الوفادة أي حوالي ٦٣٠ م ، بينما حددت نهاية المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء بعام ٥٥٤ م(٨٠) ، أي ان سن حاجب عام الوفادة (٩هـ) كان يزيد على ثمانين سنة ، وفي مثل هذه السن لا يعقل استخدامه في مصالح الدولة . ولما كانت المصادر لاتذكر حاجبا آخر غير المعاصر لابن ماء السماء فيغلب على الظن ان نهاية المنذر يجب ان تحدد بعد التاريخ المذكور أو أن الردافة انما نشأت في عهد النعمان بن المنذر . ومن الجدير ذكره أن روايات ابي عبيده تتناقض في هذا الموضوع - ففي النقائض يروى ان يربوع انتصرت على عساكر المنذر بن ماء السماء ، بينما نقل عنه ابن عبد ربه في العقد الفريد ان يوم طخفه كان لبني يربوع على عساكر النعمان ، وكذلك فعل ابن الاثير في تاريخه وتابعه على ذلك العديد من المصادر(٨١) . وعلى أي حال لايمكننا الاطمئنان الى التسلسل التاريخي الوارد في المصادر العربية لملوك آل نصر ، فهذا التسلسل متضارب في هذه المصادر ، ونضرب مثلا على ذلك فابن الكلبي - في الطبري - يجعل حكم النعمان خمس عشرة سنة (عند حمزة الاصفهاني في تاريخ سني ملوك الارض والانبياء خمس عشرة سنة وثمانية اشهر) في زمن يزدجرد الاول ولكن مع اربع عشرة سنة أخرى (اربع عشرة سنة واربعة اشهر وفقا لرواية حمزة) في فترة حكم الملك بهرام جور . وقد حكم يزدجرد مابين ٣٩٩ - ٤٢٠م، وحدد بعضهم تاريخ ابرام السلام بين المنذر بن النعمان والروم بعام ٤٢٢م ، وهذا يدل على ان ما قيل من ان حكم النعمان اربع عشرة سنة في فترة الملك الفارسي بهرام جور غير صحيحة(٨٢) . وبناء على ما تقدم لانملك دليلا قاطعا يحدد تاريخ نشأة الردافة واسم الملك الحيري الذي نشأت في بلاطه وان كانت المصادر العربية تجمع على أن أول ردف هو عتاب بن هرمي اليربوعي وتنقسم في تسمية الملك الذي كانت الردافة في عهده بين المنذر بن ماء السماء أو النعمان بن الشقيقة . ووفقا للروايات العربية فان تقدير فترة حكم النعمان بن الشقيقة هو مطلع القرن الخامس الميلادي ، وهذا التاريخ - كما هو واضح - بعيد عن فترة حاجب بن زرارة وحوادث يوم طخفة . وكل مانستطيع ترجيحه ان الردافة انما نشأت في بلاط الحيرة وفي النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ويعزز هذا الاتجاه ان روثشتاين واولندر قد ناقشا مسألة ابن الشقيقة وابن ماء السماء ، وانتهيا الى ان بني الشقيقة لقب يطلق على فترة مابعد المنذر الثالث

للفرع اللخمي من الاسرة الحاكمة ، وان ماء السماء ليست ام المنذر وانما هي صفة أيضا لملوك هذه الاسرة (٨٣) لان ام المنذر ليس اسمها ماء السماء وانما شقيقة ، وليس المنذر نفسه فقط يلقب بابن ماء السماء وانما كل اللخميين عموما في القرن السادس يحملون هذا اللقب كما هو واضح في شعر زهير بن جناب .

ونادمت الملوك في آل عمرو وبعدهم بني ماء السماء(٨٤)

وكذلك ضمرة بن ضمرة(٨٥) اذ يقول :

تركت بني ماء السماء وفعلهم واشبهت تيسا بالحجاز مزنما
ولن اذكر النعمان الابصالح فان له فضلا علينا وانعما(٨٦)

ولبيد بن ربيعه العامري(٨٧) يقول :

وشمط بني ماء السماء ومردهم فهل بعدهم من خالد أو معمر
ومن قاد من اخوانهم وبنيهم كهول وشبان كجنة عبقر

ويقول زياد الحارثي(٨٩) :

وما تزدهينا الكبرياء عليهم اذا كلمونا ان نكلمهم نزرا
ونحن بنو ماء السماء فلا نرى لانفسنا من دون مملكة قصرا

وقد اشير الى ردافة مالك بن نويرة اليربوعي ، واستشهد على ذلك بقول جرير يفخر ببني يربوع :

منهم عتيبة والمحل وقعنب والحنتفان ومنهم الردفان(٩٠)

فقد جعل المبرد مالك احد الردفين ،والردف الاخر من بني رياح بن يربوع(٩١) . وكان مالك بن نويرة سيدا من سادات يربوع واحد قادتها يوم الأياد(٩٢) وهو الذي قتله خالد بن الوليد ـ في رواية مشهورة ـ اثناء حروب الردة ، ولابد أن تكون ردافته لآخر ملوك الحيرة ، اذ لم تذكر المصادر شيئا حول هذا الموضوع . وذكر ابن سعيد ان بني زرارة ايضا كانت لهم ردافة الملوك ، غير ان ماذكره لم يؤيد بمصادر اخرى ، وقد تكون مكانة زرارة ـ بيتدارم ـ في تميم في عهد حاجب وابنه عطارد هي التي اوحت القول بردافتهم ، مع ان مكانة حاجب في الحيرة وبلاط الملك الفارسي كانت كبيرة وقد دفعت هذه المكانة حاجبا ان يطلب نقل الردافة من يربوع الى دارم ولم يطلبها لنفسه مع ان المنذر عرضها عليه(٩٣) وربما كان حاجب ابن زرارة يشعر انه اكبر واعظم من الردف .

وتذكر المصادر العربية ان زعماء كندة من بني آكل المرار كان لهم ارداف من زعماء القبائل . وقد لعبت قبيلة كنده ـ او هذا التجمع القبلي الذي اطلق عليه هذا الاسم ـ دورا كبيرا في احداث الجزيرة العربية في القرن السادس الميلادي . ولقد ظل تاريخ ظهور هذه الاسرة على مسرح الاحداث في شمال الجزيرة غامضا ولاسيما قبل استقرارها في غمر ذي كنده . وعلى الرغم من ان الاصل الحضرمي لهذه الاسرة أصبح مسلما به ، فلا بأس من ذكر بعض الروايات التي تظهر شعور الكنديين بالغربة وهم بين قبائل الشمال كما تظهر ارتباطهم الذي لم ينقطع بوطنهم الام حضرموت . وقد ذهبت أغلب المصادر العربية القديمة الى انهم من العرب اليمانيه(٩٤) ، كما ان الهمداني مؤرخ اليمن جعلهم من حضرموت وعزز ذلك بقول امرىء القيس :

كأني لم الهو بدمون مـرة ولم أشهد الغارات يوما بعندل(٩٥)

ودمون وعندل من أشهر منازلهم كما هو واضح من شعر إمرىء القيس . ومن ذلك انـه بعد مقتل شرحبيل بن الحارث الكندي يـوم الكلاب(٩٦) الاول ، حمـل عوير بن شجنته بن الحارث بن عطارد بن عوف بن كعب بن زيد مناة ، نساء حجـر وآله ومتاعه وابلغهم اهلهم في اليمن ، وقد اثنى امروء القيس(٩٧) على عوير كثيرا في شـعره ومما قاله :

لكـن عـويـر وفى بذمتـه لا عـور ضـره ولا قصـر
كالبدر طلـق حلـو شمائلـه لا النخـل ازرى بـه ولا الحـصر
مـن معشـر ليس في نصابهـم عيب ولا في عيدانهـم خـور
بيـض مطاعيـم في المحـول استروح ريـح الدخـان والقتر

وذكرت بعض الروايات العربية ان بعضا من امراء كندة كانت امهاتهم اميرات من حمير ، فقد ذكر الاصفهاني ان شعبة بنت ابي معاهر بن حسان بن عمرو بن تبع ، هي والدة معاوية وعمرو المقصور ابني الجون . ومن الدلائل على ان قبائل الشمال كانوا ينظرون الى آل كندة كغرباء عنهم ، قول بني أسد لقيس وكنانه بعد مقتل حجر آكل المرار : « يامعشر كنانـة وقيس انتم اخوانـا وبنو عمنا والرجل بعيد النسب منـا ومنكم ، وقد رأيتم ما كان يصنع بكم وقومه فانتهبوهم »(٩٨) وكذلك قول عمرو اقحل بن ابي كرب بن قيس بن سليم بن الحارث الملك بعد انقلاب القبائل الشمالية على امراء كندة : « يامعشر كنده انكم قد اصبحتم بغير دار مقام ، وقد ذهب اشرافكم وانخرق ملككم ولا آمن العرب عليكم فالحقوا بقومكم » فرحلوا ولحقوا بحضر موت(٩٩)

وفي النقوش نجد ان نقش مآرب Glaser 618 الذي يعود الى عام ٥٤٣ م يفيد ان كنده او ربما جماعة من كندة كانت تسكن حوالي ذلك الوقت حضر موت أو قريبـا منهـا(١٠٠) .

اشار اليعقوبي(١٠١) الى حروب طاحنة بين كنده بزعامة رئيسين احدهما سعد بن عمرو بن النعمان بن وهب ، وبطونهـا من بني الحارث بن معاوية بزعامة عمرو بن زيد ، والسكون بزعامة شرحبيل ، وبين حضرموت يقودها رؤساء من بينهم مسعر بن مستعر واسمه ابن حجر وشراحيل بن مره . وقد انهكت الحروب كندة واثرت الرحيل من بلاد اليمن نحو بلاد معد ـ أي بين القبائل الشمالية ـ مما دعا بعض الاخباريين الى اعتبار كنده من معد(١٠٢) . وفي أسباب سيادة البيت الكندي في معد وبسط نفوذهم على منطقة واسعة من شمال ووسط الجزيرة العربية ، قيل الكثير ونحن ذاكرون اكثر هذه الروايات شيوعا .

١ ـ الروايات القائلة بأن تبع الحميري هو الذي ولى الحارث الحيرة ، وهـذه روايات ابن الكلبي في الاغاني (٣٥٤/١٦ عند الطبري ٢ /٨٩) ، ورواية عند ابن قتيبة في المعارف (٦٣٤) وعند ابن حبيب في المحبر (٣٦٨) واخرى عند حمزة الاصفهاني (١١٧) وكذلك ذكر ابن الاثير (٢٣٩/١) .

٢ ـ الروايات التي تقول بأن قبائل ربيعة اضطربت احوالها وعصفت بها ريـاح التحاسد والتباغض والاقتتال ، فطلبت من الحارث الكندي ان يملك على قبائل ربيعة اولاده . بعد ان اتفقت القبائل على تمليك غريب يقيم العدل والتناصف فيها ... وهذه روايات اليعقوبي (١٨٨/١) وابي عبيدة في العقد الفريد (٦٧/٦) وكذلك ابن نباته في سرح العيون(١٥٣) والنويري في نهاية الارب (١٥\٤٠٦) .

٣ ـ الروايات الي تذكر ان قباذ لما تملك عرش فارس استهوته الزندقة ولم يستجب له في هذا الهوى المنذر الثالث بن ماء السماء ـ ملك الحيرة ـ واستجاب لـه الحارث الكندي فأخرج قباذ المنذر ونصب مكانه الحارث ، وهذه روايات ابن الكلبي في (الطبري ٩٥/٢) ، وابي عبيدة في (الاغاني ٢٠٩/١٢) وابن الكلبي في الاغاني (٧٨/٩) وكذلك نقل ابن سعيد الاندلسي في النشوة (١ / ٢٤٥) وهناك بعض الروايات التي تقول بأن الحارث بن ابي شمر الغساني هو الذي ملك آل كنده ، وذلك في روايـة ابن الهيثم بن عدي نقلا عن يهود ثيماء (الاغاني ٩ / ٨١) وفي روايـة البيهقي في نشوة الطرب (١ / ٢٤٥) ، وهذه الرواية يضعفها كون الحارث الغساني عاصر الرسول (ص) وكان مـن بيـن الذين أرسل الرسول اليهم الكتب يدعوهم الى الاسلام(١٠٣) ، بينما فترة قبـاذ المنذر والحارث سابقة للاسلام ، كما ان علاقات كنده مع امراء غسان لا توحي بهـذه التبعيـة .

ويعزز الروايات القائلة بان زعامة كندة ونفوذها ووجودها انما يدين للتبابعة النقش الذي اطلق عليه اسم نقش شرف الدين ــ ٤٤ (١٠٤) والذي يوضح ان الملك شمر يهرعش الثالث الذي حكم اليمن سنة ٣١٠ م وصل الى العراق ودحر الفرس وطردهم من العراق ، ويفيد النقش ان هذا الملك دخل مدينة طيسفون وكوك ــ ويعتقد ان هاتين المدينتين هما ما يطلق عليه المدائن حاليا ــ ويذكر النقش ان تبع بعد ان هزم الاعداء عاد الى اليمن وقدم الشكر الى الآله « المقه » بعل أوام على هذا العمل العظيم (السطر ١٩ من النقش) . وماجاء في هذا النقش يتفق مع ماجاءت به الروايات الجنوبية حول امتداد النفوذ اليمني في فترة من فترات الحميريين الى العراق ، فقد ذكر ابن الكلبي أن أبا أسعد كرب بن ملكيكرب استولى على الحيرة (١٠٥) .

ويبدو ان ازدهار الامارة الكندية جاء مصاحبا لازدهار النفوذ الحميري وانه تضاءل واختفى على اثر احتلال الاحباش لليمن وسقوط حكم التبابعة . ويمكننا ان نشاهد ثلاث قوى كبرى تتصارع على النفوذ في جزيرة العرب في مطلع القرن السادس الميلادي ــ أي قوى الفرس والروم والحميريين .

لقد وصف الازرقي آل كنده بقوله : « كانت كنده من ارداف المقاويل » (١٠٦) وذكر ابن الاثير ان ملوك حمير كان يخدمها ابناء الاشراف ، وان عمرو بن حجر الكندي ــ سيد كنانه ــ كان يخدم تبع حسان(١٠٧) . ولم تذكر المصادر ان احدا من ابناء اشراف اليمن سمي بالردف ، كما لم تكن الردافة صفة من صفات حكام اليمن أو معاونيهم . فقد سمي هؤلاء بالاقيال ، المقاويل ، الأذواء ، العباهلة والمباهلة(١٠٨) ، ولابد ان ماذكره الازرقي انما جاء منقولا عن روايات تأثرت بالردافة التي عرفتها قبائل الشمال .

وكانت الردافة لآل كندة في بكر وتغلب ابني وائل بن ربيعه وهما على ما تذكره المصادر أعظم قبائل ربيعه شأنا في بلاد العرب ، وكانت منازل بكر تمتد مابين اليمن وتهامه ثم استوطنوا البحرين وتحركوا شمالا الى الجزيرة الفراتية حيث استقروا في الناحية التي لا تزال تنسب اليهم وهي « ديار بكر »(١٠٩) ولانجد تعليلا لتحرك أبناء وائل شمالا وبمحاذاة الفرات الا توافر الخصب في هذه الجهات من جهة وضغط القبائل عليهم من الجنوب من جهة أخرى . كما كان لسياسة الفرس دور في هذا ، وكانت مواطن تغلب أدخل في الجزء الشمالي بالقرب من حدود الشام (١١٠) . ويؤيد ذلك ان اسماء منازل هاتين القبيلتين التي ذكرت أيام « البسوس » انما تمتد مابين البحرين واليمامة وشمال الإنبار(١١١) . وقد استغرقت هجرة بكر وتغلب زمنا طويلا حتى استقرتا في الجزيرة الفراتية في العهد الاسلامي ويرجح ان هجرتهم انما بدأت في عهد ذي نواس في اوائل القرن السادس الميلادي (١١٢) .

ويستدل من تاريخ بكر وتغلب على علاقات حسنه لهما مع امراء الحيرة ـ وكلاء الاكاسرة ـ فقد كان الفرس يستغلون حاجة القبائل في الاستقرار بجوارهم فيبسطون نفوذهم عليها وهكذا امتد النفوذ الفارسي على طول شواطىء الخليج العربي وحتى عمان ، وقيل انهم كانوا يعينون الحكام في هذه المناطق(١١٣) . كما وصل نفوذهم بلاد اليمن وذلك بحملة وهرز الذي ساعد سيف بن ذي يزن في اخراج الاحباش من اليمن ، وبعد سيف تولى اليمن حكام من الفرس(١١٤) . ويرد في بعض المصادر ان نفوذ الفرس شمل الحجاز وانهم ـ بوساطة حكام الحيرة ـ عينوا الحكام في يثرب(١١٥) . وبالغت بعض المصادر في تقريب الفرس من العرب حتى نسبتهم الى ابراهيم الخليل(١١٦) عليه السلام . ان هذه الاقوال رغم ما فيها من مبالغة انما تشير الى محاولات الفرس القديمة في بسط سلطانهم على بلاد العرب ، وفي سبيل هذه الغاية اهتموا بمعرفة شؤون القبائل العربية ودخلوا اسواقها وتعرفوا على اشهر الزعماء العرب ليكونوا عونا لهم « في اعزاز ملكهم وحمايته من العرب .. »(١١٧) وفي مقدمة القبائل التي شملها النفوذ الفارسي بكر وتغلب وبطون من تميم بالاضافة الى الاتحاد القبلي الذي عرف « بتنوخ » او « لخم » وكانت اليه امارة الحيرة . وقد استخدم الفرس هذه القبائل لحماية حدودالدولة من اغارات القبائل الاخرى ، ثم لجذب قبائل أخرى للوقوف مع الحيرة في وجه القبائل الموالية لبيزنطة بزعامة الاسرة الغسانية أو تلك الموالية لملوك حمير ، وهناك هدف آخر لا يقل أهمية عن الأهداف المتقدمة ، ذلك هو تأمين طرق القوافل التجارية الموجهة من فارس والحيرة الى الحجاز او اليمن وافريقيا(١١٨) . وقد نجح الفرس في سياستهم نجاحا كبيرا حتى اننا نجد بكر وتغلب ـ في اغلب الاحيان ـ يسخرون للحرب مع امرء الحيرة ضد خصومها من القبائل العربية(١١٩) .

وتتضح العلاقة بين الحيرة وهذه القبائل في رواية نقلها صاحب الاغاني عن محمد بن سعد تقول أن المغيرة بن شعبه سأل هند بنت النعمان بعد فتح الحيرة ـ وكانت عجوزا ـ أي العرب كان أحب الى ابيك ؟ فأجابت : ربيعة(١٢٠) ونقل ابن عبد ربه عن ابي عبيدة قوله في حديث يوم المظالي : « ان بكر بن وائل كانت تحت يد كسرى وفارس وكانوا يجيرونهم ويمدونهم »(١٢١) . ولا بد من التنبيه الى ان ولاء القبائل لفارس وامراء الحيرة لم يكن دائماوثابتا فكثيرا ما تمردت هذهالقبائلعلىحكام الحيرة واسيادهم كما سيتبين معنا خلال هذه الدراسة .

وتفيد المصادر ان الحارث الكندي اجتاح الحيرة وقتل النعمان وافلت منه ابنه المنذر بن ماء السماء حيث التجأ الى القبائل خارج الحيرة ، فنصب ملك الفرس ابو يعفر بن الذميل أميرا على الحيرة وهذا من خارج الاسرة المالكه ـ آل نصر ـ وامام

هذا شعر المنذر بخيانة الفرس لـه بعدم نجدته في محاربة الحارث الكندي ثم بتولية رجل من خارج الاسرة المالكة في الحيرة ، فتقرب من الحارث الكندي وتزوج ابنتـه هند ، وتدل مكانة هند في البلاط الحيري انها لم تكن سبية حرب كماذهب البعض(١٢٢) ولعل هذا التقارب بين الحارث والمنذر هو الذي اعاد المنذر الى عرش الحيرة ، لان الحارث الكندي لم يقم في الحيرة بل ترى الروايات انه اقام بالانبار وبعضها يقول انـه لم يقم بمدينة معينة وانما كان سيارا بين القبائل(١٢٣) .

ويظهر ان الحارث كان له بعض النفوذ في العراق بعد موت النعمان في عهد قباذ ، وان قباذ اضطر الى مصالحته على ان يكون الفرات حدا لسلطانه وانه تخلى له عن ستة طساسيج من ارض السواد مقابل حماية الحارث لارض السواد من غـزو القبائل العربية(١٢٤) .

وفي فترة ازدهار النفوذ الكندي فرق الحارث اولاده في قبائل معد ، فقـد نقل ابو عبيدة عن خراش وابن الكلبي(١٢٥) ، ان الحارث الكندي صير ولده شرحبيل ملكا في بكر بن وائل ، وحنظلة مالك ، وبني زيد بن تميم وبني اسيد وطوائف من بني عمرو من تميم والرباب ، وصير سلمة بن الحارث في بني تغلب والنصر بن قاسط وسعد بن زيد مناة بن تميم وطوائف اخرى من تميم وقضاعه . وعند ابن حبيب(١٢٦) ان الحارث ملك ولده حجرا على بني اسد بن خزيمة ، وملك شرحبيل على تميم والرباب ، وملك سلمة على بكر وتغلب وملك معدي كرب وهو « غلفاء » على قيس وكنانة(١٢٧) ، وليس بين المصادر اتفاق في هذا . وقدساءت العلاقات بين الاخوين شرحبيل وسلمه وقيل في سبب اختلافهما ثلاث روايات ، احدها يقول ان الخلاف كان سببه النزاع على تقسيم القبائل بينهما(١٢٨) ، والثانية ان سبب الخلاف هو بمساع من المنذر ودسائسه بينهما ، وثالثها سببه العداء المستحكم بين بكر وتغلب وهما عماد قـوة الاخوين ، فقاد هذا النزاع الى حرب يوم الكلاب الاول .

ويستفاد من الروايات العربية(١٢٩) أن ابناء الحارث لم يحسنوا معاملة القبائل بل اثقلوها بالاتاوات مما سبب انتفاض هذه القبائل عليهم فمنهم من قتل ومنهم من هرب الى بلاده حضرموت . وذكرت هذه الروايات ان « ابا حنش ، عصم بن النعمان » من تغلب كان ردفا للملك الكندي سلمه بن الحارث ، ولاتذكر عن ردافته شيئا ، الا انه لعب دورا بارزا في يوم الكلاب ،وتجمع هذه الروايات على انـه هو قاتل شرحبيل بن الحارث الكندي ـ الملك ـ ويبدو ان سلمه الذي تملك على تغلب والذي حرض على قتل اخيه يوم الكلاب ، قد حزن بعد مقتل اخيه حزنا عظيما ، مع ان المصادر تذكر انه جعل جائزة لمن يأتيه براس اخيه شرحبيل ـ ولذلك لم يجرؤ ابا حنش على

احضار راس شرحبيل الى اخيه لنيل الجائزة التي جعلت لقاتله ، فبعث براسه مع ابن عم يدعى ابو اجأ بن كعب بن مالك بن عتاب(١٣٠) .

وهذه ابيات من الشعر قيل انها لسلمة كما قيل انها لاخيه الثالث معد يكرب الذي اعتزل قتال الاخوين ، وتعكس هذه الأبيات الحزن على مصرع شرحبيل وتصرح بأسم قاتلــه :

الا ابلغ أبا حنش رســـولا ... فمالك لاتجيء الى الثــواب

تعلم ان خير الناس طـرا ... قتيل بين احجار الكلاب(١٣١)

وتختلف المصادر في سبب قتل ابي حنش لشرحبيل بن الحارث الكندي ، فبعضها يصرح انه جاء للحصول على الجائزة التي جعلها سلمة لقاتل اخيه(١٣٢) . وبعضها يرى ان ذلك حدث عندما استنجد « ذو السنينة » وهو أخ لابي حنش لامه ، بعد ان كاد شرحبيل ان يقتله في حرب يوم الكلاب ، ولابد أن أبا حنش كان مخلصا في قتال شرحبيل لسببين ، الاول ، حرصه في نصر قبيلته تغلب على بكر التي تحارب مع شرحبيل ، والثاني ان انتصاره في الحرب يزيد من مكانته كردف لسلمه بن الحارث(١٣٣) وكان بنو سدوس بن شيبان من بكر اردافا لملوك كنده ايضا ، والارجح انها كانت للملك شرحبيل (١٣٤) ، وذلك لان بكر كانت مع شرحبيل ، وان جميع اتباع الاخوين شرحبيل وسلمه تركوا القتال يوم الكلاب الا بكر وتغلب لما كان بينهما من عداء بسبب حرب يوم البسوس(١٣٥) .

ويرجح ان الردافة لملوك كنده لم تستمر طويلا ، فقد انتهت بانتهاء سلطان كندة على قبائل معد ، وذلك واضح في سكوت الروايات عن ردافة آل كندة بعد ذلك . ويمكن الاستنتاج ان ابناء الحارث أخذوا بنظام الردافة ، لاغراء القبائل القوية بنفس الامتيازات التي يمنحها حكام الحيرة من آل نصر لرؤساء القبائل ، ويستدل من اسماء القبائل التي خضعت للحارث وبنيه الى امتداد سلطانهم مابين الحجاز والبحرين .

وذكرت بعض المصادر ردافة في قبيلة ضبّة بن اد ، وقد برزت مكانة هذه القبيلة في شمال الجزيرة العربية مما جعل ملوك الحيرة يعطون هذا الامياز لزعماء هذه القبيلة في فترة لاتسعفنا المصادر المتوافرة في تحديدها ، ولكن من مقابلــة الردف « جليلة » باسماء ابناء قومه الذين وفدوا على الرسول (ص) يتبين انه لم يعاصر عهــد الرسول (ص) وانما كان قريبا منه(١٣٦) . وهذا يشير الى ان ردافة جليلة انما كانت في العهود الاخيرة لملوك آل نصر في الحيرة . وكانت ضبّة تقيم مابين اليمامة وهجر(١٣٧) ، وتعبر هذه المنطقة الطرق التجارية المتجهة من غرب وجنوب الجزيرة

الى شواطىء الخليج العربي والحيرة ، وقد اكسبها هذا الموقع ميزة خاصة ، كما ان تحالفها مع عدد من بطون تميم في حلف الرباب القوى(١٣٨) زاد من قوتها حتى عدها الاخباريون من جمرات العرب(١٣٩) ، وكان لهذه القوة حروب كثيرة مع ملوك الحيرة(١٤٠) .

ومما يشير الى بأس ضبة ان احد فرسانها « ضرار بن الرديم(١٤١) هاجم المنذر الاصفر واخذ زوجته وكل ما كانمعه(١٤٢) . واشتهر من ضبه عدد من الشعراء مثل ربيعه بن مقروم وزيد الفوارس بن حصين الضبي – وابو تمامه ، وابن عنمة ، ومحمد بن ابي شحاذ الضبي ، ووجيهة بنت اوس ومنصور بن ابي معجاج الضبي ، وقرواش بن حوط الضبي(١٤٣) . وذكر كاسكل ان ضبه لم يكن لها شعراء مشهورون في العهدين الاموي والعباسي(١٤٤) .

ومن القبائل التي اشارت بعض المصادر الى ردافة لزعمائها ، عامر بن صعصعة ، فقد ذكرت اسم عروة بن عتبة بن جعفر الملقب بالرحال ، وقيل انه سمي بذلك لكثرة رحلته الى الملوك(١٤٥) . وتمتد منازل قبيلة عامر بن صعصعه من واحة تربة الى الشرق مخترقة وادي رانيه الى الجنوب من طريق مكه – الرياض(١٤٦) .

ومن أشهر بطون عامر « كلاب » الذي ينتمي اليه عروة الرحال ، ويفهم من الروايات ان عامر بن صعصعه كانت على علاقة حسنة بمكة(١٤٧) ، وانها كانت تعتبر من احلاف قريش وعدت في الحمس معها(١٤٨) . وقد دفعتهم هذه الصلات الى ان يشاركوا بمواسم الحج ويظاهروا قريش حتى قيل ان خالد بن جعفر بن كلاب أول من كسا الكعبة بالديباج(١٤٩) ، ولابد انهم دخلوا في ايلاف قريش وساهموا في حماية التجارة المكية ، وظلت العلاقة مع قريش حسنة حتى فتك البراض الكنانى بعروة الرحال العامري مما سبب حرب الفجار المشهورة بين كنانة وهوازن التي من بطونها عامر بن صعصعه ، واخبار هذه الحرب معروفة ومشهورة(١٥٠) .

ويستفاد من اخبار هذه الحرب ان عامر بن صعصعه كان لها دور كبير فيها ، ويؤيد ذلك مكانة عروة الرحال الذي اشتهر بمجالسته للملوك وحظوته لديهم ، وهذا ما جعل النعمان بن المنذر يفضله على سواه في اجازة لطائمه الى عكاظ(١٥١) . وتبدو مكانة عروة العظيمة في قومه ان بطون هوازن اجمعت على الاخذ بثأره مضحية بعلاقتها الحسنة مع مكة ، ومما يجدر ذكره ان الرسول (ص) قد حضر هذه الحرب وكان ينبل على عمومته(١٥٢) .

واغلب الظن أن ردافة عروة انما كانت للنعمان بن المنذر الذي عينه خفيرا للطائمه المتجهة الى عكاظ ، او انه كان رديفا لمعاوية بن الجون الكندي الذي كان اميرا في اليمامة

فقد اشارت بعض المصادر الى صلات حسنة لعامر بن صعصعه ولعروة مع هــذا الامير (١٥٣) .

ومن ايام عامر المشهورة يوم جبلة(١٥٤) ، ويوم رحرحان(١٥٥) ، ويــوم المروت(١٥٦) ، ويبدو من هذه الايام ان عامر بن صعصعه لم تكن على علاقة حسنة بالحيرة قبل عروة الرحال ، فقد سبق وان اغار نفر من عامر على معسكر النعمان وانتهبوه بما في ذلك زوجته المتجردة(١٥٧) . ويتضح من ردافة عامر بن صعصعه بروز هذه القبيلة في مطلع القرن السابع الميلادي ، ويشير هــذا ايضــا الى ان تغيرا طرأ على ميزان القوى القبلي في هذه المنطقة ، ويعود ذلك الى ضعف تميم من جراء حروبها المتكررة والمختلفة مع الحيرة والقبائل العربية(١٥٨) القوية وبخاصة القبائل الجنوبية وابناء ربيعة ، وكما يعود ايضا الى تحالف هوازن وثقيف الذي أدى الى السيطرة على سوق عكاظ(١٥٩) وعلى الطرق التجارية بين الحجاز والعراق بعد ان اضعفت حرب البسوس ايضا كلا من بكر وتغلب ، وهذا بدوره دعا امراء الحيرة ان يتقربوا من زعماء هوازن ، وعروة الرحال احدهم . ويفهم من بعض الاشــارات الواردة في المصادر ان هوازن وثقيف انهمكوا في التجارة مع مكة في هذه الفترة وان اطماعهما ربما اتسعت للفوز بالسيطرة على منطقة الحجاز واخذ دور قريش لاسيما بعد صراع مكة مع المسلمين ، ولعل هذا مايفسر اصرار هوازن وثقيف على مقاومة الدعوة الاسلامية ، ويمثل يوم حنين هذا الموقف اوضح تمثيل(١٦٠) .

وختاما نرى ان القرن السادس الميلادي تميز بصراع بين ثلاث قوى رئيســية للسيطرة على الجزيرة العربية هي : قوة الفرس والروم والحميريين . ولعل محاولة الحمريين في هذا الصراع هي الاولى لاقامة وحدة في بلاد العرب ، حيث نجح الحارث الكندي وابناؤه من بعده في جمــع العديد من القبائل العربية القوية . فكانت هــذه المحاولة سابقة افاد منها أهل الحجاز والنبي محمد صلى اللــه عليه وسلم(١٦١) . وقد اعتمد هذا الصراع على القبائل المربية حيث تنافست هذه القوى في كسب تأييدها ، واستخدمت في سبيل ذلـك وسائل عدة ، فمنحوا رؤساء هذه القبائــل الالقــاب والامتيازات كالردف ، وذي الآكال(١٦٢) وذي التــاج(١٦٣) وفــلارك وبطريــق(١٦٤) .

● اتقدم بالشكر للاستاذ عبد العزيز الدوري الذي امدني ببعض المصادر المخطوطة والملاحظات القيمة ، كما اشكر الزملاء في القســم عوض خليفات ومصطفى الحيارى ، ومحمد خريسات الذين راجعوا مسودة البحث وابدوا ملاحظــاتهم القيمة، كما واشكر السيدة سميرة الصايــغ التي قــامت بالطباعة ، فلهؤلاء جميعا وافر الشكر والامتنان .

(ملحق رقم ٢)



خارطة تبين أسماء القبائل والمواقع التي وردت في البحث

الهوامـــش :

(١) جونار اولندر ، ملوك كنده من بني آكل المرار ، ترجمة الدكتـور عبـد الجبار المطلبـي ، بغـداد ، ١٣٥٣ هـ ١٩٧٣ م ، المقدمة ص٨ .

(٢) انظر مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية ، ادارة الآثار والمتاحف ، وزارة المعارف ، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م ص١٧ وما بعدها . ولطفي عبـد الوهاب يحي ، العرب في العصور القديمـة ، بيـروت ١٩٧٩ م ص١٤٧ وما بعدهـا .

(٣) انظر ناصر الدين الاسـد ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، ط ٣ ، القاهـرة ١٩٦٦ م ص٣٢١ وما بعدهـا .

(٤) ياقوت الحموي ، معجم البلـدان ((الحيرة)) و معجم الادباء ٢٨٧/١٩ . وابن النديم ، الفهرست ، طبعة خياط بعناية فلوجل ص٩٥ وما بعدها . و منذر البكر ، مصادر تاريخ العرب قبل الاسلام ، مجلة كلية الآداب ، جامعة البصرة ، العدد ٦ ، عام ١٩٧٢ ص ٤١ .

(٥) اولندر ص ٩ .

(٦) الطبري ، تح ، محمد ابو الفضل ابراهيـم ، طبعة دار المعارف ، مصر ١٩٦٩ م ، ٦٢٨/١ .
F. Altheim, R. Stiehl, Die Arber Inder Alten welt, Berlin, 1968, Bd, 4. S. 3.

(٧) اولندر ص ٩ .

(٨) ياقوت ، معجم الادباء ، ٢٨٨/١٩ . والذهبي ، طبقات الحفـاظ ، ٣١٤/١ . وشـذرات الذهـب ، حوادث ٢٠٤ هـ . وانظر أيضا ترجمة ابن الكلبي في انساب السمعاني ، وابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ط مصوره عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩/٩ - ٢٠ ، ١٥٥/١٠ ، وانظـر منـذر البكـر ، مصادر تاريخ العرب قبل الاسلام ، ص٤١ .

(٩) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ١٩٦٨ ، ٧٩/١ . وعبد العزيز الدوري ، بحث في نشاة علم التاريخ عند العـرب ، بيروت ١٩٦٠ ، ص١٦ .

(١٠) انظر ابن حزم الاندلسي ، جمهرة انساب العـرب ، ط . دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٢ م ص ٣١٢ - ٣١٤ . واولندر ص ٩ .

(١١) F. Altheim, Op cit. S. 3.

(١٢) انظر جب ، المدخل الى الادب الجاهلي ، تـر جمة كاظم سعد الديـن ، بغـداد ١٩٦٩ م القاهـرة ١٩٦٠ ، ص ٢٨ .
R. A. Nicholson, A literaryHistory of The Arabs, Cambridge, 1963. p. 71.

(١٣) ذهب الى مثل ذلك الدكتور طه حسين ثم عدل عن رأيه في كتابه الأدب العربي ، وانظر بلاشيـر ، تاريخ الأدب العربي ، ترجمة الدكتور ابراهيم ا لكيـلانـي ، دمشـــق ١٩٥٦ م ، ص ١٧٦ - ١٨٧ . والحوفي ، الحياة الأدبية في الشعر الجاهلي ص ١٩ - ٣٧ . وناصر الدين الاسد ، ص ٣٥٢ وما بعدها.

(١٤) الاب انستاس الكرملي ، النقود العربية وعلم ا لنميات ، القاهرة ١٩٣٩ م ، ص ٨٨ وما بعدها .

(١٥) انظر سعيد الافغاني ، اسواق العرب ، ط ٣ ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٤٦ وما بعدها .

(١٦) ie der Lahmiden in al-Hira, erlahmidischen Dynastie.

قام الدكتور منذر البكر بترجمة بعض من فصول هذا الكتاب الى العربية في مجلة كلية الآداب ، جامعة البصرة العدد ١٥ ، لعام ١٩٧٩ ص ٢٨٧ - ٢٩٨ . والعدد ١٦ لعام ١٩٨١ ص ٢٢٧ - ٢٦٧ .

(١٧) نقل الدكتور عبد الجبار المطلبي هذا البحث الى العربية ، بغداد ١٣٥٣ هـ - ١٩٧٣ م .

(١٨) نقل الدكتور يحيى الجبوري هذا البحث الى العربية ، بغداد ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .

(١٩) انظر جواد علي ، المفصل ١٣٥/١ .

(٢٠) انظر منذر البكر ، مصادر تاريخ العرب قبل الاسلام . وفيما يتعلق بالمصادر العربية للردافة انظر الهامش رقم (٣١) .

(٢١) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة « ردف » .

(٢٢) ن . م .

(٢٣) ومن معانيها ما جاء في القرآن الكريم عن غزوة بدر : « فاستجاب لكم اني ممدكم بالف من الملائكة مردفين » (سورة الانفال ، آيه : ٨) أي متتابعين يردف بعضهم بعضا . والروادف : الاعجاز ... واردف الرجل واردفه : ركب خلفه .. والردف في الشعر : حرف ساكن من حروف المد اللين يقع قبل حروف الروي ليس بينهما شيء ، ومثل هذا في العروض الفارسي والتركي - اي نوع من البحر ذي التفعيلات الطويله ، اي Tlypermetre الذي يجيء رديفا للقافيه . ولم يظهر الردف في الشعر التركي الا في القرن الثالث عشر ، ومع ذلك فهو في الاخص من بدع الفرس . والرديف موجود في الشعر العربي القديم في صورة بدائية ، وان عرف باسم آخر . وبطل استعمال الرديف في تركيا في القرن التاسع عشر ولعل ذلك كان بتاثير الشعر الفرنسي .. وفي المصطلح العسكري التركي اطلق السلطان محمود الثاني الاسم « رديف » (عساكر رديفة منصورة) على الجيش الاحتياطي الذي انشىء عام ١٨٤٣ .

انظر ابن منظور « ردف » ودائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، مادة « رديف » .

(٢٤) ابن منظور ، اللسان « ردف »

(٢٥) انظر الالوسي ، محمود شكري ، بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ، تح . محمد بهجت الأثري ، ط٣ . مصر ١٣٤٢ هـ ، ١٨٤/٢ .

(٢٦) شرح ديوان لبيد ، تح . احسان عباس ، الكويت ١٩٦٢ م ص ٣٥ .

وأبو عبيدة،معمر بن المثنى ، ت ٢٠٩ هـ ، النقائض ، تح ، محمد اسماعيل عبد الله الصاوي ، القاهرة ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٥ م ، ٧/٢ « وشهدت انجية » . وانظر أيضا ابن منظور « ردف » .

(٢٧) ابن منظور « ردف » . وابن سيده ، ابوالحسن علي بن اسماعيل النحوي اللغوي الاندلسي ، ت : ٤٥٨ هـ ، المخصص ، تح ، لجنة احياء التراث العربي ، بيروت ـ الكتاب الثالث من المجلد الاول ، ص ١٣٨ .

(٢٨) ابو عبيده ، النقائض ، ٧/٢ . والألوسي ١٨٤/٢ .

(٢٩) ابو عبيده ، المصدر السابق والصفحة

(٣٠) دائرة المعارف الاسلامية مادة (رديفا) .

(٣١) انظر ابن الكلبي ، جمهرة النسب ، رواية ابن حبيب ، خط ، ورقة ١٥٤ . وابي عبيده ، النقائض، ٧/٢ . وابن دريد ، ابو بكر محمد بن الحسن ، ت : ٣٢١ هـ ، تح . عبد السلام هـارون ، القاهـرة ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٨ م ، ص ٢٢١ . وابن عبد ربـه ، العقد الفريد ، تح، محمد سعيد العريان ، بيروت، بلا تاريخ ، ٧٥/٦ . وابن سعيد الاندلسي (٦١٠ ـ ٦٨٥ هـ) نشوة الطرب في أخبار جاهلية العـرب ، تح . نصرت عبد الرحمن ، دار الاقصى ، عمان ١٩٨٢ م ، ٤٤٨/١ . والثعالبي ، ابو منصور عبـد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري ، ثمـار القلوب في المضاف والمنسوب ، القاهـرة ١٣٢٦ هـ ـ ١٩٠٨ م ص ١٤٤ . والمبرد ، ابـو العباس ، الكامل في اللغة والادب والنحـو والصرف ، تـح ، احمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م ص ١٢٤٤ . والاصفهاني ، ابو الفرج ت : ٣٥٦ هـ ، الاغاني ، ٣٣٣/٩ . وابو البقاء ، هـبة اللـه ، المناقب المزيدية في اخبار الملـوك الاسديـة ، خط ، ٢ ١٣٥ . وابن الاثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم ، ت ٦٣٠ هـ ، الكامل في التاريخ ، بعناية نخبة من العلماء ، بيروت ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م ، ٣٩٦/١ . وابن نباته ، جمال الدين (٦٨٦ ـ ٧٦٨ هـ) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، تح . محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهـرة ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٤ م ص ٨٦ .

(٣٢) E. I. (1) Tamim.

(٣٣) البكري ، ابو عبد الله بن عبد العزيز البكري الاندلسي ، معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع، تح ، مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٤٥ م ، ١٩٥١ م ، ٦٣/١ وابن منظور « الحزن » . والزبيـدي ، تاج العروس « الحزن » . وابن بليهد ، محمد بـن عبد الله ، صحيح الاخبار عما في بلاد العـرب مـن الآثار ، تح . محمد محي الدين عبد الحميد ١٩٧٢ ، ١٠/١ .

(٣٤) ابن بليهد ١٣٤/٥ .

(٣٥) البكري ١٧١/٣ .

(٣٦) ابن بليهد ٦٦/٢ . وابن سعيد الاندلسي ٤٤٨/١ . وغيداء كاتبه ، الردة ، رسالة ماجستير من كلية الآداب ـ قسم التاريخ ـ الجامعة الأردنيـة ، خط بلا تاريخ ص ٣١٤ وما بعدها .

(٣٧) سعيد الافغاني ، ٢٢٥ ـ ٢٣٠ . وانظـر الخارطه ، ملحق (٢) .

(٣٨) البكري ١/٨٨ . « وعند ظهور الاسلام كانت تميم في اليمامه » . ن . م . ١/٩٠ . انظر ايضا Oxford Bible Atlas, p. 66. ودائرة المعارف الاسلامية « رديف » . وبهجت التكريتي تميم ودورها السياسي والعسكري في صدر الاسلام ، مجلة الخليج العربي ، عدد ٩ ، عام ١٩٧٨ ، جامعة البصرة ، ص ٣٧ . ومن الجدير ذكره انه لم يكن يقال في الجاهلية الا ملك القوم وسيدهم ورئيسهم للعرب – انظر ابو البقاء ، ١٥ ب . وقد استخدم الباحث تسمية ملوك تارة وامراء تارة أخرى لحكام الحيره .

(٣٩) ج . كستر ، الترجمة العربية ص ٦٠ .

(٤٠) ابن حبيب ، المحبر ٢٦٤ – ٢٦٥ . ومحمد حميد الله ، Muslim Conduct of state, p. 101.

(٤١) ابن سعيد الاندلسي ١/٤١٦ .

(٤٢) ابو عبيده ، النقائض ، ١/١٢٨ . « وجرير الشاعر من قبيلة يربوع التميمية » . لقاح : اي مستقلون لا يخضعون للملوك .

(٤٣) انظر الاصفهاني ، الاغاني ١٩/١٨٤

(٤٤) ابو البقاء ، ٥٤ ب .

(٤٥) انظر محمد احمد جاد المولى وزميليه ، ايام العرب في الجاهلية ، ط ٣ ، القاهرة ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨ م ، ص ٢١٢ وما بعدها .

(٤٦) الاصفهاني ، الاغاني ٤/١٤٦ .

(٤٧) ن . م ٤/١٤٨ .

(٤٨) A. N. Stratos, Byzantium in the seventh Century, trans. by Marc Oglivie-grant-Amsterdam, 1968, vol. 1. p. 17.

(٤٩) الطبري ٢/٥٥ ، ٢/٦٠٩ . وصالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بغداد ١٩٦٨ م ، ص ٦٤ . Stratos, op cit, p. 17.

(٥٠) ibid والطبري : الصفحات السابقة ، صالح العلي ، الصفحة السابقة .

(٥١) Stratos, p. 17.

(٥٢) ابو البقاء ، ٢٠ ب ، ٢١ أ . السواد : جنوب العراق .

(٥٣) ن . م ١١٣ أ .

(٥٤) ن . م ١٣٥ أ . وكستر ، ٢٠ .

(٥٥) ابن حبيب ، المحبر ، ٢٥٣ ، ابو البقاء ١١٤ أ .

(٥٦) البلاذري ، احمد بن يحي ، انساب الاشراف ، القسم الاول من الجزء الرابع ، طبعة القدس ، عام ١٩٣٦ ، ص ١٢٦ . ومصعب الزبيري ، ابو عبدالله نسب قريش ، تح . ليفـي برفنسال ، ط ٣ . دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٢١٠ ، والزبير بن بكار ، جمهرة نسب قـريش ، تح . محمـود محمد شاكر ، القاهرة ١٣٨١ هـ ، ص ٤٢٦ . وابن حبيب ، المنمق في اخبار قريش ، تح . خورشيد احمد فاروق ، الهنـد ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤ م ص١٧٨ – ١٨٥ . وابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ١١٨ . وابو البقاء ، ١٠٠ ب

(٥٧) ابو البقاء ، ١٠٢ ب واللطائم : هي تجاير ملوك الحيره .

(٥٨) كان في تميم بطون لقاح : انظر قول جرير السابق أمام الرسول صلى الله عليه وسلم « ونحن حـي لقــاح » .

(٥٩) ابو البقاء ، ١٦٦ أ .

(٦٠) ابو عبيدة ، النقائض ٢/٧ .

(٦١) ابن الكلبي ، جمهرة النسب ١٥٤ « على عهدالنعمان بن الشقيقـة » . وابو عبيـدة . النقائض ٦١/١ « على عهد المنذر » وجاء في رواية أبي عبيدة في العقد الفريد ٧٥/٦ : « ان الرادفة كانـت لعتاب بن هرمي ثم لابنه قيس وذلك بخلاف روايته في النقائض ٦١/١ « ان الردافة كانت لعوف بـن عتــاب » .

(٦٢) ابو البقاء ١٣٥ أ .

(٦٣) المنزع : هو الثمام ينزع ويقتلع من اصله فتبرد به او طاب اللبن . انظر ابو عبيدة ، النقائض ٢/٧ . وكذلك ديوان جرير ، ط بيـروت ١٩٦٠ م ص٢٦٦ .

(٦٤) ابو عبيدة ، النقائض ١٦٥/٢ . وابن قتيبه ، المعارف ، ص ٦٠٨ . وابو البقاء ، ٢١ أ .

(٦٥) ديوان جرير ، بيروت ١٣٧٩ هـ – ١٩٦٠ م ، ص ٢٨٧ . وانظر شرح ديوان جرير ، ص ٤٣ .

(٦٦) ابن هشام ، السيره ، ٥٦٢/٢ ، والاصفهاني، الاغاني ١٤٧/٤ .

(٦٧) ن . م .

(٦٨) ديوان جرير ص ٤١ ، وشرح ديوان جرير ص ٤٣ . ذات الصليب : يقصد بها حدراء زوجـة الفرزدق الشيبانية لان اجدادها كانوا نصارى . انظـر ايضا الاصفهاني الاغاني ٣٣٣/٩ .

(٦٩) المبرد ، الكامل ، ص ١٢٤٤ .

(٧٠) انظر قول جرير يرد على الفرزدق ، االاصفهاني ، الاغاني ٣٣٣/٩ .

(٧١) ابو البقاء ، ٢١ أ ، الفاسي ، شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام ، ١٤١/٢ . وابن حبيب ، المحبر ١٣٤ . والالوسي ، ١٢٣/١ ، ٣١١/١ وما بعدها . وكستر ص ٦٠ .

(٧٢) ابن هشام ، السيره ٥٦٠/٢ . وابن سعد ، الطبقات الكبرى ، بيروت ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ ، ٢٩٣/١ .

(٧٣) الاصفهاني ، الاغاني ، ١٠٥/٢ . وانظر الحربي، ابو اسحاق ابراهيم بن اسحاق ، المناسك ، تح . حمد الجاسر ، الرياض ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م ، ص ٥٩٣ .

(٧٤) انظر ابن حبيب ، المحبر ص ٣٠٤ . وابن قتيبه ، المعارف ص ٧٦ .

(٧٥) ابن قتيبه ، المعارف ، ٦٤٩ .

(٧٦) انظر تحديد المكان عند الحربي ، المناسك ص٥٩٣ وما بعدها . وانظر ايضا ياقوت معجم البلدان « طخفه » . والاصفهاني ، الحسن بن عبد الله ، بلاد العرب ، تح . حمد الجاسر وصالح احمد العلي ، الرياض ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م ص ٣٣٨ .

(٧٧) ابو عبيدة ، النقائض ٦١/١ وما بعدها . وقارن مع ابي البقاء ١٣٥ أ . وابن عبد ربه ، ٧٥/٦ . والبراجم هم خمسة من ابناء حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم دخلوا مع يربوع ودعوا بالبراجم وهم : عمرو ، والظليم وغالب ، وكلفه ، وقيس . سموا بذلك لان عددهم كان قليلا ، فقال لهم حارثة بن عامر بن عمرو بن حنظلة ، « ايتها القبائل التي قل عددها ، تعالوا فلنجتمع ، فلنكن كبراجم اليد » . ابن حزم ، الجمهرة ص ٢٢٢ . وانظر عن اشتراك البراجم في يوم طخفة مع يربوع ، ابن رشيق ، العمده ٢/ ٢٠١ .

(٧٨) اليعقوبي ، ابن واضح ، تاريخ ، تح . محمد صادق بحر العلوم ، النجف ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥ م . ١٨٣/١ ـ ١٨٤ . وحمزة الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت ، ص ٩٤ . وابن قتيبة ، المعارف . ص ٦٥١ . والطبري ٢١٣/٢ . وابن رشيق ٢٠١/٢ . وابن عبد ربه ٧٥/٦ . وابن سعيد الاندلسي ١/ ٤٤٩ . وابن الاثير ٣٩٦/٢ . وابن خلدون . تاريخ ، نشر بعناية علال الفاسي وعبد العزيز بن ادريس وعلق عليه الامير شكيب ارسلان . مصر ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م ، ٢/ ٤٦ . والالوسي ١٩/٢ . وروتشتاين ٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

(٧٩) انظر الجدول ، ملحق (١) .

(٨٠) روتشتاين ص ٢٤٦ .

(٨١) ابو عبيدة ، النقائض ٦١/١ . وابن عبد ربه ٦ /٧٥ ، والميداني مجمع الامثال ، تح . محمد محي الدين عبد الحميد ، ط٣ . دار الفكر ١٩٧٢ ، ٤٢٣/٢ . وابن رشيق ، ٢٠١/٢ . وابن الاثير ٣٩٦/١ . ومحمد احمد جاد المولى ٩٤/١ .

(٨٢) روتشتاين ٢٥٢ وما بعدها . واولندر ص ١٠٤ وما بعدها .

(٨٣) انظر الاصفهاني ، الاغاني ١٠٠/٢١ ، والجوهري ، مختار الصحاح ، مادة « موه » . وروتشتاين ٢٥٣ .

(٨٤) نادمت : لازمت . آل عمرو : ال نصر . انظر الاصفهاني ، الاغاني ٢٣/١٩ . وروتشتاين ، الترجمة العربية ٢٥٣ .

(٨٥) الاصفهاني ، الاغاني ٢٦/١ .

(٨٦) ن . م . ١١ / ١١٤ .

(٨٧) ديوان لبيد ، ط . دار صادر – بيروت ١٩٦٦ م ص ٧٠ .

(٨٨) ابن منظور ((عبقر)) : موضع بالبادية كثير الجن . يقال في المثل كأنهم جن عبقر . وانظر ايضـا ياقوت ، معجم البلدان ((عبقر)) .

(٨٩) المرزوقي ، شرح ديوان الحماسه ، نشر احمد أمين وعبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، القسم الاول ص ٣٤٥ .

(٩٠) انظر شرح ديوان جرير ، ص ٥٧٣ ((عتيبة بن الحارث بن شهاب ، والمحل بن قدامه بن اسود بـن ابي الحمره ، وقعنب بن عتاب بن الحارث ، وا لحنتفان ابنا اوس بن اهاب او حنتف بن اسجف واخوه . واحد الردفين مالك بن نويره اليربـوعي والاخر من بني رياح بن يربوع . انظر المبـرد ، الكامل ١٣٤٤ . وابن منظور ((ردف)) .

(٩١) المبرد ، ن . م .

(٩٢) محمد جاد المولى ، ص ١٩١ ((وهو يوم اعشاش وهو يوم العظالى)) . انظر :ها : ١٢٠ .

(٩٣) ابو البقاء ١٣٥ أ .

(٩٤) اولندر ٦٣ .

(٩٥) حسن السندوبي ، ديوان امرىء القيس واخبا ر المراقسه ، ط٤ . مصر ١٩٥٩ م . ص ١٩٧ . وانظر الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٦٩ وما بعدها . والاكليل لنفس المؤلف ، تح . محمـد علـي الاكوع ، الرياض ١٣٩٤ هـ – ١٩٧٤ م ، ٢/ ٣٧ . وانظر ياقوت ، معجم البدان ((دمون)) .

(٩٦) يوم الكلاب الأول : لسلمه بن الحارث بن عمرو المقصور الكندي على أخيه شرحبيل ، والكلاب : اسم ماء بين الكوفة والبصرة . أنظر محمد احمد جا د المولى ص ٤٦ .

(٩٧) ابو عبيده ، النقائض ١/١٦٣ .

(٩٨) الاصفهاني ، الاغاني ٩/٨٤ .

(٩٩) ابن حبيب ، المحبر ٣٧٠ .

(١٠٠) اولندر ٦٤ .

(١٠١) تاريخ ، ١/١٨٨ .

(١٠٢) ياقوت ، معجم البدان ((غمر ذي كنده)) . وا ولندر ٦٣ .

(١٠٣) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ١/٢٦١ .

(١٠٤) A. Jamme, Sabaean Inscriptions, p. 372. Walter. W. Mullar: Eim Sabaiehe Gesandtschaft in Ktesiphon and selenkia, p. 163.

انظر منذر البكر ، لمحات من الصراع العربي – الفارسي قبل الاسلام ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد :

٢١ ، عام ١٩٨٢ م : ص ٩ – ١٦ .

(١٠٥) جواد علي ١٦٧/٣ .

(١٠٦) أخبار مكة ، نسخة مصورة عن الطبعة الهندية في مدينة « غنتنفة » ص ١٣٥ .

(١٠٧) ابن الأثير ٢٣٩/١ .

(١٠٨) ابن سعيد الاندلسي ، ص ١٠٢ . وأنظر ابي علي القالي ، الامالي ، بيروت ١٣٩٨ – ١٩٧٨ م ، ص ٧٤/١ . وابن سيده ، المخصص ، م ١ ك ٣ ص ١٣٥ .

(١٠٩) دائرة المعارف الاسلامية ، « بكر » .

(١١٠) ن . م . « تغلب » .

(١١١) انظر تحديد مواقع « النهى » و « كبات » عند ياقوت ، معجم البلدان ، وهما موقعان ذكرا في أيام حرب البسوس . وأنظر الاطرفجي ، رمزية ، قبيلة تغلب ، مجلة آداب الرافدين ، عدد ٩ ، جامعة بغداد ١٩٧٨ ص ١٥٥ .

(١١٢) المرجع السابق . تقول الاطرفجي في بحثها المشار اليه ان ايام ذي نواس حوالي ٣٨٠ م نقلا عن دائرة المعارف الاسلامية ، ولعله حدث خطأ مطبعي لأن فترة ذي نواس انما كانت في مطلع القرن السادس الميلادي .

(١١٣) انظر كستر ص ٩ وما بعدها .

(١١٤) انظر الطبري ١٤٨/٢ .

(١١٥) الجاحظ ، البيان والتبيين ، دار الفكر للجميع ١٩٦٨ ، ص ١٧/١ .

(١١٦) المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تح ، محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٤ . القاهرة ١٩٦٤ م ، ١ / ٢٤٢ .

(١١٧) ابن الجوزي ، مثير العزم الساكن في فضائل البقاع والأماكن ، مخطوط في المكتبة الظاهرية ، (ادب ٤٦) الكراس الخامس عشر . قارن مع الافغاني ص ٢٨١ .

(١١٨) دائرة المعارف الاسلامية « تميم » و « بكر » و « تغلب » . والتكريتي تميم – – ص ٣٧ .

(١١٩) انظر الاصفهاني ، الاغاني ٤٨/١١ وما بعدها ، وابن نباته ، ص ١٥٢ .

(١٢٠) الاصفهاني ، الاغاني ، ١٦/٨٥ .

(١٢١) ابن عبد ربه ، ٤٥/٦ . وابن الأثير ١/ ٣٧٣ .
يوم المظالي : هو يوم الأياد وهو يوم اعشاش وكان لبني يربوع على بكر بن وبيعة ، وإياد موضع بالحزن لبني يربوع . انظر ابن الاثير ٣٧٢/١ . ومحمد جاد المولى ١٩١/١ .

(١٢٢) انظر اولندر ، ١٠٩ .

(١٢٣) انظر حمزه الاصفهاني ، ص ٩٢ . اولندر ١١٣

(١٢٤) الطبري ٢/٩٥ – ٩٦ . وروايــة البكري في المفضليات ص ٤٢٩ .
الطساسيج : النواحي ، ومفردها الطسوج . ابن منظور « طسج » .

(١٢٥) ابو عبيده ، النقائض ٢/١٥٦ – ١٥٧ .

(١٢٦) ابن حبيب ، المحبر ٣٦٩ – ٣٧٠ .

(١٢٧) ابن خلدون « رواية ابن الكلبي » ٢/٦٤ . والا صفهاني ، الاغاني ١٢/٢٠٩ ، ١٦/٣٠٨ وابو البقــاء ٥٦ أ . واولندر ص ١٤٠ .

(١٢٨) انظر اولندر ، ١٢٢ وما بعدها .

(١٢٩) انظر ابن حبيب ، المحبر ٣٧٠ . واولندر ١٥٠ .

(١٣٠) ابو عبيده ، النقائض ٢/١٥٩ . والاصفهاني ، الاغاني ١٢/٢١٢ .

(١٣١) ن . م .

(١٣٢) ن . م .

(١٣٣) ابن حبيب ، المحبر ٢٠٤ .

(١٣٤) ابن قتيبة ، المعارف ٧٥ . وابن دريــد ، الا شتقاق ٣٥٢ .

(١٣٥) انظر محمد احمد جاد المولى ورفاقه ١٤٢ وما بعدها .

(١٣٦) قارن فترة عبد الله بن صفوان بن صباح بن طر يف مع فترة جليله بن ثابت بن عبد العزي بن جلاس ، والاول من الوافدين على الرسول صلى الله عليه وسلم . انظر ابن حزم ، جمهرة الانساب ، ص ٢٠٦ .

(١٣٧) البكري ١/٨٨ . وابن خلدون ٢/١٣٥ . وغيداء ٣٥ .

(١٣٨) E. I. (1) DABBA.

(١٣٩) ابن قتيبة ، المعارف ٧٥ . وابن حبيــب ، المحبر ٢٣٤ . والثعالبي ، ثمار القلوب ١٢٦ .

(١٤٠) انظر أيام تميم . وأيام ضبه وأشهرها : يوم النسار ، والشقيقة ، وبزاخه ، ودارة ماسل والنقيمه محمد احمد جاد المولى ص ١٧٠ وما بعدها و ٣٤٤ وما بعدها .

(١٤١) انظر ابو عبيده ، النقائض ١/٢٢٠ ، ١/٢٢٤ ، ١/٢٢٥ . وشرح المفضليات ٢٦٤ وابــن حــزم ، جمهرة الانساب ص ٢٠٣ . وابن الاثير ١/٣٥٤ ، ١/٣٧٤ ، ١/٣٧٦ ، ١/٣٩٤ .

(١٤٢) ابو البقاء ١٤٠ ب .

(١٤٣) انظر شرح الحماسه للتبريزي ١/١٣ ، ١/٢١٦ ، ١/٢٢٣ ، ١/٢٢٥ ، ١/٢٢٧ ، ١/٣٦٩ ، ٢/٥٠ ، ٢/١٦٢ ، ٢/١٨٨ ، ٢/ ١٩٤ .

(١٤٤) E. I. (1) DABBA.

(١٤٥) الجاحظ ، البيان والتبيين ١/٩٢ . وابن نباته ص ٩٠ .

(١٤٦) غيداء ، الرده ص ٣٤ . و E. I. (1) DABBA.

(١٤٧) ابن هشام ١/٢١٢ . والكلاعي ، ابو الربيـــع سليمان بن سالم المشهور بالكلاعي ، الاكتفاء في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء ، تح . هنري ماسه ، الجزائر ١٩٣٠ ، ١/٢٧٢ . كاسكل ، دائرة المعارف الاسلاميـــة .

(١٤٨) الانباري ، المفضليات ، ط . لايل ص ١٤ ، ٤ ٣ . والمرزوقي ، شرح الحماسه ص ٣١ . وابن الكلبي عند المرزباني ، نور القبس ص ٢٥٨ . وابـــن حبيب ، المنمق ١٤٣ – ١٤٦ .

(١٤٩) ابن هشام ، ١/٩٩ ((حا : ٣)) . الالوسي ١/ ٢٣٤ .

(١٥٠) انظر تفاصيل هذه الحرب عند ابن هشام ١/ ١٨٤ وما بعدها . وابن الاثير ١/٣٥٨ وما بعدها وابن رشيق ٢/٢١٨ وما بعدها . ومحمد جاد المولى ص ٣٢٢ وما بعدها .

(١٥١) ابن حزم ، جمهرة الانساب ١٨٥ ، ٢٨٦ . والا صفهاني ، الاغاني ٢٢/٥٧ .

(١٥٢) انظر مصادر حرب الفجار حا : ١٤٩ من هـــذا البحـــث .

(١٥٣) ابو عبيدة ، النقائض ٢/٩ . وابن حبيب ، المحبر ٣٦٨ – ٣٦٩ .

(١٥٤) يوم جيله : كان لعامر وعبس على تميم ومعها ذبيان وكنده وأسد . محمد جاد المولى ٣٤٩ .

(١٥٥) يوم رحر حان : لعامر على تميم . ورحرحان اسم جبل قرب عكاظ . ن . م . ٣٤٤ .

(١٥٦) يوم المروت : لتميم على عامر . ن . م . ٣٧٥ .

(١٥٧) ابو عبيده ، النقائض ط . ماريا نالينو ، روما ١٩٥٣ ، ٢/١١٠ . وابو البقاء ١٤٠ ب . وابن حـــزم ٢٨٩ . وكاسكل ، جمهرة النسب ، ٢/٢٨٥ . و كستر ٢١ .

(١٥٨) انظر حروب تميم عند محمد جاد المولى ١٧٠ وما بعدها و ٣٤٤ وما بعدها .

(١٥٩) يشير الى ذلك أن هوازن حرمت قريش من عكاظ اثناء حروب الفجار ، ويكفي ان نتذكر قول عامـــر بن مالك ملاعب الاسنة زعيم هوازن : ((واللـــه لا تنزل كنانة عكاظ ابدا)) . محمد جاد المولى ٣٢٠ .

(١٦٠) انظر تفاصيل هذه الغزاة عند الواقدي ، المغازي ، تح . مارسيدن جونز ص ٨٨٥ وما بعدها .

(١٦١) انظر حتي وزميليه ، تاريخ العرب المطول ، ط ٤ . دار الكشاف ١٩٦٥ ص ١١٦ .

(١٦٢) وهم اشراف كانت الملوك تقطعهم القطائع ، وهم قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ابن عبد الله ذي الجدين بن عمرو بن الحارث بن همام بن مره بن ذهل بن شيبان وكان كسرى اطعمه الأبله وثمانيـن قرية من قراها . ويزيد بن مسهر بن اصرم بن ثعلبه بن أسعد بن همام بن مره بن ذهل بن شيبان . والحارث بن وعله بن المجالد بن يثربي بن الزبان بن الحارث بن مالك بن ذهل بن ثعلبه بـن عكابـه . انظر ابن حبيب ، المحبر ٢٥٣ .

(١٦٣) اطلق هذا اللقب على عدد من زعماء القبائل ، وكان صاحب اللقب انما يضع في الغالب خرزات علـى رأسه ، انظر ابن الكلبي ، جمهـرة النسب ، الورقات : ٣٦٩ ، ٣٨٨ ،٤١٧ « هـوذة ذو التاج » والمبرد ، الكامل ١/٣٧٠ ، ٧٣٠ . والطبري ٢/ ١٦٩ وابو البقاء ، ٢١ أ ، ٢٤ أ ، ٣٧ أ ، والثعالبي، ثمار القلوب ١٤٤ .

(١٦٤) وهذه الالقاب منحها البيزنطيون الـى زعمـاء الغساسنة وزعماء القبائل الموالية لهم . انظـر حتي ١/١٠٢ . وصالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٥٧ .

★ ★ ★

المقاومة العربيّة للصّهيونيّة

أواخر العهد العثماني (١٩٠٨ - ١٩١٧)

الاتجاهات الرئيسية

د . خيرية قاسمية
جامعة دمشق

أولا : مقدمة :

لم تشكل فلسطين خلال العهد العثماني وحدة ادارية أو جغرافية تميزها عن سورية ، وهي المنطقة التي عرفتها الجغرافية العربية باسم الشام أو بر الشام(١) ، الا أن الاحساس بخطر الغزو الصهيوني كان عاملا أساسيا على توضيح مفهوم فلسطين ذي الجذور الدينية التاريخية وتوحيد عرب فلسطين في مناطقهم المختلفة ، وابراز الشخصية الفلسطينية خلال السنوات الاخيرة من العهد العثماني .

وكانت فلسطين قد شهدت منذ الربع الاخير للقرن التاسع عشر تدفق مجموعات صغيرة من أوربا الشرقية من أفراد حركة « أحباء صهيون » ليس بدافع التقاليد الدينية بل بدعوى ان فلسطين هي وطن للشعب اليهودي ، هدفهم خلق جماعة متميزة عما حولها باللغة والثقافة واسلوب الحياة ، واخذت بالقيام بتجارب عملية لاستيطان زراعي حديث . وترسم طلائع هذه الحركة التي وصلت فلسطين عام ١٨٨٢ بداية الصهيونية الحديثة(٢) .

وقد طوّرت هذه الحركة على يد هرزل الصحفي اليهودي النمسوي الذي عمل على خلق صهيونية جديدة في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر في غرب اوربة فكرت بأساليب سياسية للحصول على فلسطين ذاتيا (وهو ما اصطلح على تسميته بالوطن القومي) عن طريق وثيقة من السلطان مضمونة دوليا والتي عرفت « ببرنامج بازل »(٣) . والتقت تلك الافكار مع ظروف دولية مواتية كان مصلحتها زرع استيطان يهودي في فلسطين ، وبدت الحركة الصهيونية وجها آخر من الغزو الاوربي للمشرق العربي(٤) .

المؤتمر الخامس للجنة الدولية للدراسات العثمانية - تونس - ١٩٨٢ .

ولكن مناورات هرزل الدبلوماسية وجهود المنظمة الصهيونية التي أنشأها والمؤسسات التابعة لها بمواردها الضخمة ، اثبتا فشلهما لضمان أساس قانوني للهجرة وللاستيطان اليهوديين(٥) ، فقد كانت تقف أمام المشروع الصهيوني عقبات كثيرة : اذ ان فلسطين هي الارض المقدسة للديانات الثلاث ، ولا يمكن للحكومة العثمانية ان تقبل بفصلها عن الدولة العثمانية ، كما ان السلطان كان يحجم عن اضافة « مسألة يهودية » الى التنافسات العرقية والدينية المتعددة التي تكتنف الامبراطورية ، او الى مزيد من القوميات الاجنبية المتمتعة بالامتيازات ، وكان على استعداد لان يستوطن اليهود في أي مكان غير فلسطين ودون حقوق خاصة ، ولم يكن هذا هو « الحل الصهيوني » الذي تصوره هرزل . ورفض السلطان ان يمنح اليهود ميثاقا حتى مقابل الملايين وأعلن بوضوح عن رفضه لبيع فلسطين(٦) .

والواقع ان الحكومة العثمانية كانت قد تحققت من خطر استيطان اليهود الاجانب باعداد كبيرة في فلسطين منذ بداية الهجرة اليهودية(٧)، وصدرت الاوامر الاولى من اجل منع تدفق الهجرة اليهودية عام ١٨٨٧ ، (وظلت هذه الاوامر تتكرر دوما بتعديل طفيف) ، وهي تنص على السماح لليهود بالدخول الى البلاد كحجاج او زوار ، ويدفع كل يهودي مبلغ خمسين ليرة تركية كتعهد بأن يغادر فلسطين خلال ٣١ يوما . وربما كان تزايد القلق بشأن الاستيطان اليهودي هو الذي دفع السلطان عام ١٨٨٧ الى جعل القدس سنجقا مستقلا عن ولاية دمشق ، وله اتصال مباشر بالباب العالي(٨) . وفي عام ١٨٩٩ صدرت قوانين جديدة سمح بموجبها لكل يهودي بالاقامة ٣ شهور على أن يسلّم جواز سفره عند نزوله الى موانىء ولاية بيروت أو متصرفية القدس ، ويتسلم بدلا منه تذكرة حمراء « تذكر فيها المهنة والجنسية وسبب الرحلة » ، وعند انتهاء الاشهر الثلاثة تقوم السلطات المحلية بترحيل اليهود عن طريق الهيئات القنصلية الاجنبية . وفي الحقيقة لم يكن للسلطات العثمانية منذ البداية صلاحية طرد الرعايا الاجانب اليهود لتمتعهم بنظام الامتيازات ، كذلك حاول المهاجرون اليهود تأمين الدخول بتغاضي السلطات المحلية(٩) . مع ذلك فالقيود العثمانية كانت تعوق المشروع الصهيوني . حتى أن الحركة الصهيونية قبل زوال نظام السلطان عبد الحميد كانت قد يئست من تحقيق برنامجها نتيجة لصعوبات سياسية بالغة ، وحوّل هرزل انظاره عن فلسطين ، وانشقت فئة كبيرة عن الحركة الصهيونية لتبدأ عملية تطواف في العالم بحثاً عن مكان يشكل فيه اليهود كيانا سياسيا خاصا بهم (١٠) .

وكانت المعارضة العربية للصهيونية هي الظاهرة الهامة التي واجهت اليهود المهاجرين الى فلسطين ، فقد اثار الاستيطان اليهودي منذ بداياته الاولى مشاعر التخوف لدى عرب فلسطين بسبب الظواهر الجديدة التي حملها المهاجرون في تسللهم

نحو فلسطين والتي خرقت طريقة الحياة التقليدية التي تعيشها الطائفة اليهودية القديمة في فلسطين ، التي تسكن المدن وتنصرف الى امورها الدينية وتعيش على الاحسان أو على بعض الحرف البسيطة .

وجاءت ردود الفعل العربية لهذا التغلغل الصهيوني مبكرة رغم انها كانت متقطعة ولم تتخذ طابعا سياسيا ، وقد خلق الاستيطان اليهودي فرصا واسعة للنزاع بين المستوطنين الجدد والفلاحين العرب الذين لمسوا بشكل مباشر المساوىء التي رافقت عملية الاستيطان والتي هددت معيشتهم ، وهذا ما دفعهم الى شن الهجوم المسلح المتواصل على المستوطنات(١١) . ومع موجات الهجرة المتدفقة اتخذت المعارضة شكلا واعيا لابعاد خطر المشروع الصهيوني الذي يَحل القادمين الجدد محل اهل البلاد بعد ان يجردوهم من املاكهم . وفي عام ١٨٩١ رفع بعض وجهاء القدس عريضة الى السلطات العثمانية طالبوا فيها بمنع الهجرة وشراء الاراضي منعا باتا(١٢) . وتعتبر العريضة أول عمل عربي منظم ضد الهجرة والاستيطان اليهوديين ، وقد تكون أحد الاسباب التي دفعت الاستانة الى تشديد قيودها على الهجرة وشراء الاراضي من قبل اليهود .

واثار عقد المؤتمر الصهيوني الاول ١٨٩٧ اهتمام الراي العام العربي(١٣) ونبه الشيخ رشيد رضا على صفحات المنار ابناء بلاده الى الخطر الصهيوني الذي يعمل على استعمار بلادهم والحدّ من حرية اوطانهم ودعاهم الى التفكير في المسألة ودرسها(١٤) . وعبّر نجيب عزوري في مقدمة كتابه « يقظة الامة العربية »(١٥) عن المظاهر السياسية لمطامع القوميين اليهود ، ونبه الى الخطر الصهيوني وتوقع صراعا محتملا بين يقظة الامة العربية والجهد الكامن لدى اليهود لاعادة بناء مملكة «اسرائيل» .

ثانيا : العوامل الجديدة في تطور حركة المقاومة العربية للصهيونية ١٩٠٨ ــ ١٩١٤ :

رافق تبدل النظام السياسي في الدولة العثمانية وتولي جماعة تركيا الفتاة السلطة ١٩٠٨ تغيرات بعيدة المدى كان من بينها زيادة حدة المقاومة العربية للصهيونية بعد أن كانت البذور قد غرست قبل ذلك بسنوات . ويعود ذلك الى عدة عوامل : تساهل الحكم الجديد مع الحركة الصهيونية داخل فلسطين وخارجها ، ظهور الصحافة العربية في الاجزاء العربية من آسيا وخاصة في فلسطين ، وعودة النظام البرلماني ، واخيرا سعي الحركة العربية للحصول على حقوق العرب القومية داخل اطار الدولة العثمانية .

أ ـ تساهل الحكم الجديد مع الصهيونيين :

قدم تغير النظام السياسي في الدولة العثمانية آمالا جديدة للصهيونية ، بعد أن واجهت عقبات بالغة في العهد السابق(١٦) . ولكن وصول الاتحاديين للسلطة ومساهمة فئات من اليهود العثمانيين والدونمة* في احداث الانقلاب السياسي(١٧) ثم حاجة الدولة للاموال اليهودية(١٨) ، أدت الى تساهل السلطات العثمانية في تطبيق القيود السابقة على الهجرة واستملاك الاراضي ، ودفع العمل الصهيوني في فلسطين خطوات الى الامام . ورغم ان الخط الصهيوني الجديد بدأ يتخذ اتجاها جديدا من الدعاية تحت ستار الولاء للعثمانية ، والعمل لمنفعة الدولة ونفي الهدف السياسي(١٩) ، ولكن هذا لم يمنع من أن يظل الهدف الاصلي لمشروع هرزل بانشاء الوطن القومي كامنا في خلفية اذهان الصهيونيين(٢٠) . واستمروا في البحث عن ضمانات دولية وكسب الدول جميعها كعامل ضغط على الدولة العثمانية بهدف ازالة العقبات التي تعرقل ولا تمنع العمل الصهيوني والمتعلقة بقوانين الهجرة وامتلاك الارض ، ثم الحصول على امتيازات وتنازلات جديدة(٢١) ، بحيث أنه حين نشبت الحرب العالمية الاولى كانت هناك اكثر من ٤٠ مستوطنة تملك ما يقدر بـ ٤٠٠,٠٠٠ دونم من احسن الاراضي في فلسطين ، في الجليل ومرج بن عامر وسهل سارونة(٢٢) .

ومع كل ما أبدته الحكومة العثمانية من عطف فقد ظل موقفها حذرا اذ كانت الصهيونية تمثل مفتاح التدخل الاجنبي والاطماع السياسية ، ولم يقم الحكم الجديد الا بحجة انقاذ الدولة من هذه الاطماع . وكان يزيد من تردد الحكم الجديد في دعم النشاط الصهيوني بشكل مفتوح عامل آخر هو العداء العربي للتغلغل الصهيوني ، اذ كان لا يمكن للدولة العثمانية أن تتجاهل الرأي العام العربي الذي اصبح له وزنه في أعقاب التغييرات السياسية(٢٣) .

ب ـ الصحافة العربية في فلسطين وخارجها :

استفادت الصحافة العربية من الحرية التي منحت بعد ١٩٠٨ ولعبت صحف فلسطين دورا هاما في تنبيه الرأي العام للخطر الصهيوني الذي يهدد حياة الفلاحين

---

* الدونمة هم جماعة من اليهود المتسترين من اتباع شبتاي زيفي وهو يهودي من سمرنا ادعى ١٦٦٦ انه المسيح المنتظر ثم اعتنق الاسلام وظلت عقيدة (الشابائية) موجودة لدى فئة في سالونيك تعتنق الاسلام ظاهريا ويظن انهم يمارسون شعائر يهودية سرا

Times, 12.5.1910, p. 5.

والوجود العربي ، واخذت تلاحق انتقال الاراضي وتطالب بتشديد القيود على الهجرة والاستيطان اليهوديين ، وتنشر انباء النشاطات الصهيونية فكانت عاملا في زيادة مشاعر العداء للصهيونية وفي اثارة وعي الشعب لمواجهة هذا النشاط وطرق مكافحته ، بحيث أصبحت معارضة الهجرة الصهيونية بعد عام ١٩٠٨ موضوع الاحاديث الدائمة للناس . وقادت الحملة في بادىء الامر صحيفتا الاصمعي(٢٤) والكرمل (اسستا عام ١٩٠٩) ثم المنادى(٢٥) وفلسطين (اسستا ١٩١٢) . وكان رئيس تحرير « الكرمل » الصادرة في حيفا « نجيب نصار »* اول من حمل لواء المعارضة للصهيونية في فلسطين خلال الفترة السابقة للحرب دون توقف ، ولعب دورا بارزا في كشف وتعرية الخطر الصهيوني على فلسطين والفلسطينيين ، وقاد حملة توعية على صفحات جريدته التي كانت معظم نسخها توزع مجانا(٢٦) . ونشر في جريدته مرارا البرقيات الموجهة من فلسطين الى الاستانة احتجاجا على شراء الاراضي ، وطالب باتخاذ اجراءات أشد لمنع دخول المهاجرين ومنع بيع الاراضي . وردا على اعتزام الحكومة العثمانية بيع الاراضي الاميرية التابعة للدولة في منطقة بيسان(٢٧) الى اليهود الاجانب وجهت الكرمل في ٧ تموز ١٩١٣ نداء « هل تقبلون أن تصبحوا عبيدا للصهيونيين الذين جاءوا لطردكم من بلادكم مدعين انها بلادهم ؟ .. ايرضيكم ذلك أيها المسلمون والسوريون والعرب ، اننا نؤثر الموت على أن نسمح بأن يحدث ذلك » . وحث النداء الشعب على تشجيع الصناعات الوطنية والمهن والزراعة وعدم الاعتماد على الحكومة في ذلك ويكشف النداء أن الفلسطينيين قد فقدوا الامل في أن تتخذ الحكومة اي اجراء ضد العدوان الصهيوني فتحركوا نحو تنظيم انفسهم(٢٨) .

وكانت جريدة فلسطين (للاخوين العيسى من يافا)(٢٩) قد بدات بلهجة أقل حدة من الكرمل وان كانت في الاشهر السابقة للحرب قد شددت حملتها وتفوقت على الكرمل في مناوئة الصهيونية(٣٠) . وفي آب ١٩١٣ أعلنت انها زادت عدد صفحاتها حتى تتمكن من استيعاب العدد المتزايد من العرائض والاحتجاجات التي تقدم ضد الصهيونية(٣١) . وقد أدت شكاوي الصهيونيين ضد المقالات التي كانت تنشرها الصحف الفلسطينية الى اصدار الاوامر بتعطيلها بين حين واخر(٣٢) . وكانت قاعات المحاكم في حيفا ويافا التي حاكمت مرارا اصحاب الصحف المعارضة للصهيونية تغص بجمهور الحاضرين وكانت تعقب كل تبرئة شبه مظاهرة وطنية(٣٣) .

---

* نجيب نصار ١٨٦٢ – ١٩٤٨ من أصل لبناني(عين عنوب) عمل في صفد وطبرية كمساعد صيدلي ثم مارس الزراعةوخبر أحوال الاستيطان الصهيوني واطلع على الانسكلوبيديا اليهودية وانهمك في دراسة الصهيونية وكتابة المقالات في صحف القاهرة وبيروت قبل ١٩٠٨ وبعد اعلان الدستور أصدر صحيفة الكرمل اذار ١٩٠٩ .

ونقلت الصحف المحلية القضية خارج حدود فلسطين ، فأثار الخطر الصهيوني المناقشات والجدل في صحف بيروت (فتى العرب ، المفيد ، الراي العام) ودمشق (المقتبس)(٣٤) والقاهرة (المقطم ، الاهرام ، المنار(٣٥) ، المؤيد ، الاقدام) . وتبنت تلك الصحف الحملة المناوئة لبيع الاراضي العربية للمستوطنين اليهود وتابعت نمو الحركة الصهيونية ومؤتمراتها واقوال زعمائها وشرح مخططاتها الرامية للحصول على الارض ومن ثم انشاء الكيان الصهيوني . واجرت جريدة « الاقدام » في القاهرة مقابلة أواخر اذار (مارس) ١٩١٤ مع خليل السكاكيني احد مؤسسي المدرسة الدستورية في القدس فقال « ان الصهيونيين يريدون أن يمتلكوا فلسطين قلب الاقطار العربية والحلقة الوسطى التي تربط شبه الجزيرة العربية بافريقية ، وهكذا يبدو انهم يريدون كسر الحلقة وتقسيم الامة العربية الى جزئين للحيلولة دون توحيدها ، فعلى الشعب أن يكون واعيا ، انه يمتلك ارضا ولسانا ، واذا شئت أن تقتل شعبا فاقطع لسانه واحتل أرضه ، وهذا بالضبط ما يعتزم الصهيونيون أن يفعلوه » .

جـ ـ عودة الحياة البرلمانية :

اتاحت عودة الحياة البرلمانية في الدولة العثمانية للمندوبين العرب داخل المبعوثان ايجاد روابط بين امانيهم السياسية القومية تتجاوز المصالح الاقليمية(٣٦) ، وكان الخطر الصهيوني احد العوامل التي زادت في توثيق هذه الروابط . وحين طرح الموضوع على المناقشة رسميا ١٩١١(٣٧) انطلق النواب العرب من جميع الولايات العربية (منهم نائب دمشق شكري العسلي(٣٨) ونائب القدس روحي الخالدي وغيرهما) لطرح المسألة الصهيونية بجدية حقيقية وذلك بشرح أبعاد المخطط الصهيوني والعمل على احباطه وضرورة مواجهته والمطالبة بوقف النشاط الصهيوني وحث الحكومة على اتخاذ اجراءاتها ضد الهجرة وبيع الاراضي والتنبيه الى المظاهر القومية للصهيونية في فلسطين كالعلم الخاص والطوابع البريدية الخاصة والمدارس والمحاكم واستخدام اللغة العبرية(٣٩) . وأثاروا اهتمام الدولة العثمانية بالمسألة على اعتبار أن خطورتها تهدد كيان الدولة وانتقدوا تهاون السلطات ، وطالبوا باعادة فعالية القيود المفروضة على الهجرة وتملك الاراضي(٤٠) . وكانت المعاداة للصهيونية ضمن البرامج الانتخابية للمرشحين العرب الى انتخابات المبعوثان عامي ١٩١٢ و ١٩١٤ لازالة الضرر والخطر اللذين ينتظران العرب على يد الصهيونية(٤١) . وكان تأكيد مرشحي المبعوثان في متصرفية القدس على مقاومة الصهيونية كجزء من برنامجهم دليل على أن هناك رأي عام يجب الاخذ به بعين الاعتبار(٤٢) . وقد حرص المندوبون العرب على أن يؤكدوا دوما على التمييز بين المواطنين اليهود القدامى الذين عاشوا معهم في علاقات

طيبة خلال كل العصور ، واليهـود الصهيونيين الذين أدخلـوا الفكر السياسي للوطـن القومـي(٤٤) .

د ــ الحركة العربية الحديثة :

كانت النخبة العربية من المثقفين تسعى جاهدة منذ مطلع القرن ، بعد فترة احياء فكري ، للحصول على حقوق العرب القومية واعادة العرب الى موقعهم الصحيح داخل الدولة العثمانية . وقد دخلت الحركة العربية بعد عام ١٩٠٨ في طور جديد بعد تغير نظام الحكم ، وأخذت حركة التململ والتذمر من الحكم العثماني طابعا عربيا أكثر تحديدا كرد فعل للتحدي التركي . وتشكلت الاحزاب والجمعيات العربية التي ساهم فيها شباب الاوساط المثقفة من ابناء فلسطين ، وسعت لنيل حقوق العرب داخل الدولة(٤٥) . وهي في نضالها هذا أدركت أن الصهيونية تهدد الفكرة العربية الناشئة نظرا للطبيعة الخاصة للحركة الصهيونية التي تختلف عن طبيعة أي احتلال أجنبي لانها تهدف الى الاستيطان والانتزاع النهائي لاقليم هام له مكانته الخاصة في الوطن العربي والانتقال منه الى اقاليم أخرى والوقوف في وجه الوحدة العربية وتهديد مصالح الوطن العربي الحيوية ، فوضعت تلك الاحزاب والجمعيات نصب عينها مقاومتها باستخدام كل القوى المتاحة من اجل التغلب على قوة الحركة الصهيونية والعمل على ابقاء فلسطين عربية(٤٦) . واذا كان المؤتمر العربي الاول ١٩١٣(٤٧) لم يبحث باسهاب وتفصيل مشكلة الخطر الصهيوني في فلسطين ، ولم يتخذ بالتالي مقررات بشأن هذه المشكلة الهامة والخطيرة(٤٨) ، فلعل مرد ذلك الى أن الحركة العربية كانت مستغرقة في بحث الطرق والوسائل الكفيلة بتحقيق الاستقلال الذاتي للمناطق العربية في الدولـة العثمانية(٥٠) .

ثالثا : أشكال المقاومة العربية للصهيونية حتى عام ١٩١٤ :

اتفقت وجهة النظر العربية على أن ادخال الصهيونية الى فلسطين خطر كبير ، الا انها اختلفت في تقديرها لمدى هذا الخطر تبعا للفئات الاجتماعية وللمناطق :

فالمثقفون من ابناء فلسطين من سكان المدن الذين اطلعوا على الثقافة الغربيـة وتابعوا نمو الحركة الصهيونية ومؤتمراتها وأقوال زعمائها وعرفوا أهدافها البعيدة ومخططاتها ، الى جانب ما لمسوه من اعمالها مباشرة ، قد باتوا يخشون على الوجود العربي نفسه في فلسطين ، وادركوا أن غرض الصهيونيين الحالي هو الحصول على أكبر قدر ممكن من الاراضي واستيطانها ، والوصول بذلك الى الغرض السياسي البعيد . وعبروا عن معارضتهم في تسجيل الاحتجاجات(٥١) وفي كتابة المقالات في

الصحف وارسال البرقيات والوفود على مختلف المستويات . كما أخذت معارضتهم شكلا منظما فتم تشكيل منظمات محلية مهمتها الحيلولة دون بيع الاراضي الى اليهود(٥٢) ، وكذلك لجان في السواحل للاشراف على نزول اليهود في الموانىء والتأكد من تطبيق قيود الدخول . وتشكلت الأحزاب والجمعيات المنظمة لمعارضة الصهيونية مثل الحزب الوطني العثماني عام ١٩١١ (٥٣) ، وجمعية مكافحة الصهيونية في نابلس(٥٤) ، واخذت تكتسب الأنصار وتتحرك نحو مرحلة العمل . وحذت حذوها جمعيات مماثلة في اسطنبول والقاهرة(٥٥) . وظهرت المؤلفات والاثار الادبية التي أخذت ترسخ روح العداء في صفوف الجماهير ، كمؤلفات اسعاف النشاشيبي والشيخ سليمان التاجي الفاروقي . وبدأت الدعوة الى مقاطعة البضائع اليهودية وترقية أحوال البلاد الاقتصادية ، وتحسين أوضاع الاراضي ، ورفع سوية الفلاحين واقتباس أساليب الصهيونية العلمية والتنظيمية مع الادراك بأن المعارضة للصهيونية لا يمكن أن تصبح فعّالة الا من خلال اكتساب المعرفة والمهارة والتنظيم(٥٦) .

وقد شارك في هذا العمل مسلمون ومسيحيون ، وكان الشعور بالخطر الصهيوني من جملة العوامل التي قربت بين الفئتين(٥٧) . وتكوّن نتيجة جهد المثقفين رأي عام كان يتابع تطور الحركة الصهيونية من خلال منشوراتها وكتبها وصحفها . وان كان هذا الاطلاع قد اقتصر على فئة المثقفين الا أنه لا يمكن انكار الراي العام(٥٨) ، ودليل ذلك أن قاعات المحاكم في حيفا ويافا التي حاكمت مرارا أصحاب الصحف المعارضة للصهيونية كانت تغص بجمهور الحاضرين وكانت تعقب كل تبرئة شبه مظاهرة وطنية.

أما معارضة **كبار الملاك** فقد كانت ناجمة عن تهديد عملية شراء الاراضي لمصالحهم المباشرة ، وكانوا يدركون ما تحمله هذه العملية من أخطار بعيدة ترمي الى اقتلاعهم من الارض . واتهم الصهيونيون طبقة الملاك والأعيان بأنهم يثيرون اتباعهم حرصا منهم على مراكزهم ومصالحهم . ولكن هذا لم يمنع من أن يتم بيع بعض الاراضي على أيدي هؤلاء مباشرة أو عن طريق عملاء من اليهود المحليين دون مبالاة بضغط الرأي العام ضد البيع ، ورغم الاضرار التي كانت تلحق بمستأجري الارض من الفلاحين(٥٩) العرب . وكان معظم الملاك الكبار يقيمون في المدن وفي خارج فلسطين على الأغلب ، وليس لهم اهتمام مباشر بأراضيهم .

وعلى الرغم من أن **الفلاحين** في القرى لم يصلوا الى درجة الوعي الكافية لادراك أبعاد الخطر(٦٠) ، الا أنهم قد لمسوا بشكل محسوس المساوىء الاقتصادية التي رافقت عملية الاستيطان نفسها ، فعملية شراء الاراضي غالبا ما كان يتم على على أثرها طرد الفلاحين العاملين على تلك الاراضي التي كان يتم شراؤها ، وكانوا غالبا لايملكون

هذه الاراضي ، بل هي اما من أملاك الدولة أو في حوزة اصحابها من كبار الملاك . وكانت الملكيات الواسعة هي التي يطمح الصهيونيون الى شرائها ، ومن هنا كانت ردود فعل الفلاحين عنيفة ، بدات مع بداية الاستيطان . وقد تكررت هجمات الفلاحين المسلحة على المستوطنات التي اقيمت وسط القرى العربية(٦١) ، ولاسيما في مناطق طبرية والجليل ويافا حيث تتركز أكثر المستوطنات . وهذا ما دفع المستوطنين الصهيونيين الى تنظيم الحراسة اليهودية المسلحة للمستوطنات ، لحمايتها من غضب الفلاحين . ومن هذه التجربة تطور نظام « الهاشومير » (الحراس اليهود) أو بدايات « حركة الدفاع الذاتي اليهودي » . وكان مؤسسو هذا النظام يعرفون أن طريقهم « ليس مفروشا بالورود(٦٢) » ، الا ان محاولة انشاء هذا النظام كانت دليلا على أن المستوطنين كانوا يشعرون بالمصاعب التي تواجه عملية الاستيطان . وقد أوكل الى « الهاشومير » بناء مستوطنات زراعية على الحدود كي يتولوا مهمة الدفاع ومهمة العمل كطلائع للاستيطان في الوقت نفسه ، ويقول احد مؤسسي هذا النظام : « انهم منذ الأيام الاولى قد شقوا طريق الصهيونية الصعب بيد على المحراث وأخرى على السيف(٦٣) » . وهذا الشعور بعدم الأمن هو الذي دفع « آرثر روبن » مدير مكتب فلسطين الى الالحاح على المنظمة الصهيونية لتزويد المستوطنات بالاسلحة حتى تتمكن من الدفاع عن نفسها(٦٤) .

ورافق استياء الفلاحين من قدوم المستوطنين اليهود موجة من الغضب على المالكين العرب أصحاب الاراضي الواسعة الذين تساهلوا في تمليك المستوطنين لاراضيهم . وكانت الكتابات المعارضة للصهيونية تصل الى الريف فتزيد حدة المشاعر المناوئة للصهيونية . ولم يكن في الامكان أن تخفف مشاعر العداء مزاعم الصهيونيين أن هذا العداء بتحريض الملاك الكبار ، وانه لولا ذلك لتقبل الفلاحون الوجود الصهيوني بسبب تلك المنافع التي ادعى الصهيونيون انهم حملوها معهم(٦٥) . وعلى الرغم من أن الصهيونيين حاولوا أن يقللوا من أهمية هذه العلاقات العدائية ، فقد اقروا بأن الحياة الريفية في فلسطين لم تكن آمنة(٦٦) .

اطلع قادة الراي العام خارج فلسطين على الخطر من خلال الصحافةالفلسطينية وعن طريق كثير من الموظفين العرب الذين عملوا في المنطقة ، ومن خلال اللقاءات القومية في الأحزاب والجمعيات . وقد اتفقت وجهات نظرهم حول الخطر ، ووضعوا حلولا لمواجهته ، الا أن بعض الفئات القومية العربية ، في خارج فلسطين ، نظرا لأنها لم تكن على صلة مباشرة بما كان يجري(٦٧) ، اختلفت في تقدير مدى هذا الخطر ، فاتجهت الى التقليل من أهميته السياسية ، ورات أن النشاط الصهيوني يحمل فقط خطرا اقتصاديا أو اجتماعيا ، بحيث اشترطت اخذ الضمانات الكافية ضد هذه

الاخطار وتنازل اليهود عن جنسياتهم ليتساووا بالمواطنين ، كخطوة تمهيدية لقبولهم بقدوم المهاجرين الى حد يتيح الاستفادة منهم . وقد يكون انشغال هذه الفئـــات بمواجهة الخطر التركي المركزي الشديد ، أو سعيها لاقتباس أساليب الصهيونية الفنية ، سببا في قبولها فكرة التفاهم والاتفاق مع الصهيونيين اسلوبا لتلافي الخطر الصهيوني ومحاولة لتقييد الحركة الصهيونية بشروط معينة تحد من امتدادها(٦٨).

وقد فشلت محاولات عقد مؤتمر مشترك قبل الحرب العالمية الاولى لأن القيادات الصهيونية لم تشأ أن تلزم نفسها بأي اتفاق ولأن الوعي العربي على أبواب الحرب العالمية الاولى كان قد أدرك تماما مدى الخطر الذي يهدده في المستقبل(٦٩) ، وبدأ يرسم خطوطا عامة لمواجهة هذا الخطر بأسلوب جامع يبدأ بانشاء الجمعيات وينتهي بالعمل المسلح(٧٠) . وكتب محمد المحمصاني (أحد مؤسسي جمعية العربيـــة الفتاة) عام ١٩١٤(٧١) « اننا لسنا ازاء حركة مباراة ومنافسة ، بل حركة دفاع عن حياة عامة توجب الأخذ بكل طرق المقاومة ، لافرق بين انشاء الجمعيات والنقابات وبين تأليف العصابات المسلحة .. يجب أن نقيس عملنا على جميع ماعند الصهيونيين من القوى العاملة كي يتاح لنا التفوق على حركتهم ونبين لهم كيف تبقى بـــلاد العرب للعرب » .

ولم تقف الحركة الصهيونية موقف اللامبالاة من المعارضة العربية ، مع ان الزعامة الصهيونية لم تعر « المسألة العربية » اهتماما خطيرا في بادىء الأمر ، ولم تنظر الى العرب كعامل سياسي هام يجب أخذه بعين الاعتبار . وكانت جهـــود الصهيونيين تدور حول الدولة العثمانية ومن له القدرة فيها على ازاحة القيود المفروضة على عملية الهجرة والاستيطان .ورغم ان آحاد هاعام (أحد كبار مفكري حركة احياء صهيون(٧٢) كان من الاوائل الذين تبينوا الخطر الذي قد تضعه « المسألة العربية » أمام تقدم المشروع الصهيوني ، الا أن وجهة نظر الصهيونية العامةبالنسبة الى العرب كانت ترى ان المنافع الاقتصادية وامكانات التقدم الفني والثقافي التـــي تحملها الهجرة اليهودية كفيلة بجعل عرب فلسطين يرون في الهجرة فائدة لهم ، فلا يضعون العراقيل في طريقها . وهذا الرأي كان ايضا في جذور تفكير هرتزل حـــول الموضوع ، وظل سائدا لمدة طويلة (٧٣) .

وحاول الصهيونيون التقليل من اهمية المقاومة العربية ، فأرجعوا أسبابها الى أمر طبيعي يحدث في اي بلد يفد اليه مهاجرون جدد ، وتنشأ طبيعيا عن المواجهة بين عالمين مختلفين ، أحدهما متخلف والاخر متطور . وشبهوا الموقف المضاد « بقوى الصحراء التي تقف كالحارس ضد اي محاولة استيطان جديد(٧٤) » . كمـا عـزا

بعض المستوطنين الاوائل الاصطدامات الاولى بين الفلاحين والمستوطنين اليهود الى جهل اللغة والعادات والطبائع العربية(٧٥) ، واعتبر بعض كبار الصهيونيين أن المعارضة العربية تعود الى ظروف اقتصادية اجتماعية ، أو الى عداء «مسيحي(٧٦)» متأثر بفكرة « المعاداة للسامية » ، التي حملها الكتاب الكتاب المسيحيون من الثقافة الغربية(٧٧) .

ومع تغير الاوضاع السياسية في الدولة العثمانية عام ١٩٠٨ وازدياد اهمية الدور العربي ، لم يعد بامكان الصهيونيين تجاهل العرب كقوة سياسية رغم كل تساهل الحكام الجدد تجاه النشاط الصهيوني . وأثار قلق الصهيونيين تزايد المعارضة العربية للصهيونية ، والتي كانت تعرقل مساعيهم لاحتلال فلسطين . لذلك بذلوا جهودا لابطال مفعول المعارضة ، وجندوا عددا من الكتاب اليهود للدفاع عن الصهيونية على صفحات الجرائد العربية وللتأكيد على منافعها المادية(٧٨) ، واشتروا بعض الصحف الناطقة بالعربية(٧٩) ، وسعوا لدى الدولة العثمانية كي تتخذ من الصهيونية سلاحا مضادا للفكرة القومية العربية(٨٠) . وكانت آخر مساعيهم الديبلوماسية محاولة كسب تعاطف وموافقة بعض القيادات العربية للوصول الى تحالف عربي يهودي بحجة المنفعة المتبادلة وتقارب الشعبين والعمل معالاحياء الشرق(٨١)،ومايمكن أن تقدمه الصهيونية من منافع مادية للبلاد العربية اكلها ، وليس لفلسطين وحدها . وكان أصحاب هذه الدعوة يخشون على المشروع الصهيوني من الفشل ، فرأوا تجاوز المصاعب تحت ستار التفاهم والتقارب والاخوة والمصلحة المشتركة . ولم يكن بامكان هذه الأساليب أن تغير مجرى الاحداث التالية ، اذ كانت العلاقات العربية الصهيونية قد زادت حدة على أبواب الحرب العالمية الاولى (٨٢) .

رابعا : مقاومة عرب فلسطين للصهيونية خلال سنوات الحرب ١٩١٤ ـ ١٩١٧ :

عطل نشوب الحرب العالمية الأولى المقاومة العربية للصهيونية ، وانصرفت الحركة العربية عن ملاحقة المسألة الصهيونية لعدة أسباب :

١ ـ انتقال مركز نشاط الحركة الصهيونية الى مجالات عالمية بعد أن أصبح تحقيق المطامع الصهيونية أقرب الى الواقع مع قرب انتصار الحلفاء وانهيار الدولة العثمانية . وقد انتقل مركز الثقل الصهيوني الى لندن وزاد ضغط الحركة الصهيونية على الحكومة البريطانية لاصدار تصريح بالعطف على المطامع الصهيونية في فلسطين ، مستغلة الاهتمام البريطاني السابق للحرب في فلسطين ، والذي زادته الظروف الاستراتيجية الناجمة عن الحرب(٨٣) . ووصلت المفاوضات المكثفة بين

الزعماء الصهيونيين والحكومة البريطانية الى أوجها بتصريح بلفور في ٢/١١/١٩١٧(٨٤) وحين كان التخطيط يرسم لمستقبل فلسطين لم تكن المسألة العربية مجهولة بالنسبة الى المفاوضين ، وكان أمر المعارضة العربية القوية للنشاط الصهيوني معروفا لديهم . وعلى الرغم من ذلك جاءت « فكرة الوطن القومي اليهودي » لتهمل الوجود العربي ، ولم يشر التصريح الى العرب الفلسطينيين الا بأنهم « طوائف غير يهودية » في وقت لم يكن عدد اليهود يتجاوز ٤٪ من السكان(٨٥) .

ب ــ الانهاك الشديد الذي حل بشعب فلسطين ، كسائر أبناء المنطقة ، بسبب الظروف الاقتصادية القاسية وانتشار الجوع(٨٦) والمرض ، خاصة بعد أن اتخذت فلسطين نقطة انطلاق لهجوم عثماني على جبهة السويس . وكانت نتائج الهزيمة العثمانية على أهل الشام عامة وعلى أبناء فلسطين خاصة قاسية ، فعانوا من النفي والاعتقال والاعدام ومصادرة الممتلكات ، في حين أكدت جميع المصادر ان حال اليهود كانت افضل من أي فئة اخرى ، وانهم لاقوا رعاية الدولة العثمانية ، ولم تقع عليهم اجراءات الظلم والاضطهاد التي وقعت على فئات الشعب الاخرى . ويعود ذلك الى قوة تأثير أصدقاء اليهود والصهيونيين في الخارج من يهود عثمانيين ، ودونمه وامريكيين والمان(٨٧) .

جـ ــ انشغال العرب في المشرق بأحداث الحرب العالمية الاولى ، حين أصبح المشرق العربي احدى جبهات تلك الحرب بعد أن سعت بريطانيا لاستمالة العرب الى جانبها ضد الدولة العثمانية ، في نفس الوقت الذي كان العرب يسعون فيه للتخلص من الدولة العثمانية . وقد وعدت الحكومة البريطانية عرب المشرق بالاستقلال والوحدة عدا بعض التحفظات . لكن بريطانيا لم تشر في تحفظاتها الى أي ادعاءات بريطانية او صهيونية في فلسطين ، ومعنى ذلك انها اعترفت بسيادة فلسطين ضمن الدولة العربية الموعودة . ونتيجة لهذه الوعود أعلنت الثورة العربية على الدولة العثمانية في ١٠/٦/١٩١٦ ، وكونت قواتها الجناح الايمن للقوات البريطانية الزاحفة من مصر بقيادة اللنبي نحو فلسطين ، وساهم العرب بالحرب الى جانب الحلفاء الذين استغلوا الثورة لمنفعتهم ، وحاكوا المؤامرات ضد العرب ، والحرب لم تنته بعد .

ومع أن فلسطين كانت تنقصها مقومات الثورة بسبب اوضاع البلاد القاسية وحرمان البلاد من رجالها ، ومع أن اللنبي لم يرغب لعدة أسباب ، في وجود قوات عربية تعمل في جبهته(٨٨) ، الا أن تقارير « المكتب العربي » بينت اسهام عرب فلسطين خلال الحرب ، اذ انضم بعضهم الى قوات فيصل في الشرق وتعاون بعضهم الاخر مع بريطانيا ، وأدى نشاطهم ضد العثمانيين الى اضطهادهم ونفيهم أو اعدام

بعضهم . وقد مكن هذا الموقف المتعاطف ، اللنبي من معرفة كل شيء على جبهة العمليات العسكرية في فلسطين وسهل له حرية الحركة والمرونة ، ودخل البلد كصديق(٩١) . رغم كل الاسباب السابقة وهيمنة احداث الحرب على مسرح السياسة الداخلية بفلسطين في غضون الفترة الواقعة بين صيف ١٩١٤ وخريف ١٩١٧ ، لم تنصرف أنظار عرب فلسطين عن الصهيونية وأخطارها وضرورة محاربتها ، خاصة وان النشاط الصهيوني لشراء الاراضي وانشاء المستوطنات لم يتوقف خلال الحرب(٩٢) . ففي تقرير أعده المكتب العربي في القاهرة ١٩١٧/٢/٥(٩٣)، ذكر انه تم بالفعل تشكيل جمعية في القدس تضم الطبقة المثقفة من الشباب لمقاومة الاستيطان اليهودي . وحللت، مذكرة أخرى ١٩١٧/١/١٢(٩٤) أسباب المعارضة العربية في فلسطين للصهيونية لدى الفئات المختلفة بانها تكمن في أهداف الصهيونية الحديثة السياسية التي ترمي الى تأسيس دولة يهودية مستقلة ذاتيا والاقصاء التدريجي لسكانها ، وترى أن المسلمين في القدس خاصة يميلون نحو المسيحيين وهم ضد اليهود ، او بشكل أدق ضد الصهيونيين ، ويقاومون ازدياد عدد المستوطنات اليهودية وشراء الاراضي وتجريد السكان من ممتلكاتهم .

وكانت حركة المعارضة للنشاط الصهيوني التي شهدتها الصحافة العربية قبل الحرب قد تعطلت ، بعد أن أغلقت جميع الصحف التي تولت قيادة هذه الحركة ، الا أن بعض الاشارات العابرة عن الحركة الصهيونية ظهرت في بعض الكتابات خارج فلسطين . ففي كتاب كلف مؤلفاه بمسح ولاية بيروت ١٩١٦/١٣٣٥ هـ (هما رفيق التميمي ومحمد بهجت) خصصا في الجزء الثاني من الكتاب فصلا عن الحركة الصهيونية ووصف الحياة العامة في مستعمرة ملبس (بتاح تكفا) ويتساءل المؤلفان « هل تتمكن هذه الاقلية من الامة اليهودية المبتلاة بالاسراف والفطرسة من أن تصل الى الغاية اليهودية بفضل ملايين البارونات واصحاب الثروة التي لاتعرف الفناء » .

أما الصحافة في مصر والتي كانت تشرف عليها منذ الفترة السابقة للحرب ، الزعامة السورية في مصر(٩٥) ، فلم تشر الى المسألة الصهيونية او الى مستقبل فلسطين الا نادرا ، فقد شغلتها قضايا الحرب وتطور أحداث الثورة(٩٦) وتأثرت بظروف الرقابة خلال الحرب ، حتى لقد شارك بعضها في الدعايات العالمية عن معاناة اليهود وتعاطفت مع أمانيهم خلال الحرب(٩٧) . الا أن الاهرام فتحت الباب مجددا لبحث المسألة الصهيونية « التي اثيرت قبل الحرب ، على أساس أن القضية بها خصمان كل يتمسك بأدلته لتأييد دعواه ، وتركت الحكم للرأي العام ولم تتخذ موقفا بحجة الموضوعية ، فاتاحت المجال للمدافعين عن الادعاءات الصهيونية ، كما سمحت لبعض الكتاب بالرد على التحدي الصهيوني والدفاع عن الحق العربي واثبات عروبة فلسطين بالحجج المنطقية (٩٨) .

ولما كانت الحكومة البريطانية ، وهي تتابع مفاوضاتها مع الصهيونيين لاصدار التصريح ، تدرك طبيعة المشاعر العربية بشأن مستقبل فلسطين ، دون أن تجهل المعارضة العربية للصهيونية ، فقد حاولت أن تحول دون اجراء بحث لموضوع الصهيونية أثناء سنوات الحرب ، ولكن ملاحظة عابرة في صحيفة (القبلة) في مكة (١٩١٦/٨/١٨)(٩٩) أقلقت الحكومة البريطانية ، ووجهت أنظارها الى احتمال حدوث مصاعب في المستقبل . فخلال هجوم كاتب المقال على الاتحاديين وعلى مدى التسلط الالماني في الدولة العثمانية يذكر فلسطين التي أصبحت المانية « بعدما نشبت بها براثن الصهيونيين واتخذوا من الاتحاديين بقوة القيصر مطية ركبوها الى أغراضهم ، فاقتطعوها بقعة بعد اخرى ... وبلدا بعد بلد حتى رثيت قومي وبكيت عليهم بالدم لا بالدمع » . وأثار المقال مخاوف مارك سايكس (مستشار الشؤون الشرقية في الحكومة البريطانية حتى وفاته سنة ١٩١٩ ، والقوة الموجهـة الرئيسية في لنـدن للسياسة البريطانية في الشرق الادنى والموصى بالسياستين العربية والصهيونية(١٠٠) معا) ، فأرسل مدير الاستخبارات العسكرية البريطانية ، بايعاز منه ، تعليمات الى كلايتون رئيس المكتب العربي في القاهرة في ١٩١٦/١١/٢١ يطالب منه التدخل لدى أصدقائه العرب « بمن فيهم الشريف حسين » لتوجيه تحذير خطير وشخصي بعـدم الخوض في هذا الموضوع الخطر ، لانه « سيثير عداء القوى الحيادية الان ، والتـي لو أثيرت كانت كافية لتحطيم الآمال »(١٠١) .

ونظرا لقرب العاملين في المكتب العربي من المنطقة ، وامكان اتصالهم بالاجواء العربية ، فقد كلفوا بجمع المعلومات الممكنة عن مدى المعارضة العربية للنشاط الصهيوني قبل الحرب وظروفها ودوافعها ، لتكون الصورة واضحة أمام المفاوضين في لندن . كما ان بعض البريطانيين الذين عملوا في المنطقة ، أو زاروها قبل الحرب حاولوا توجيه أنظار الذين بيدهم امور فلسطين بعد الحرب الى حقوق أهل البلاد مبينين استحالة تحقيق المشروع الصهيوني(١٠٢) . ولم يكن لنصائح هؤلاء تأثيرعلى مجرى الاحداث ، فقد كانت مدرسة مارك سايكس هي التي تسير السياسة البريطانية في الشرق ، وهي مدرسة تناصر الصهيونية وتدعم القضية العربية من أجل المصلحة البريطانية ، وتغلف ذلك باسطورة بعث واحياء الشرق الذي سيكون فيه مكان يتسع للقوميتين العربية واليهودية معا(١٠٣) .

وقدم مارك سايكس الى المشرق العربي في ربيع عام ١٩١٧ بحجة دراسة الوضع القائم ليضمن قبول الزعامة العربية لكل الخطط البريطانية في الشرق ولتهيئة الجو لبناء علاقات عربية يهودية . وقد بحث سايكس مع لجنة من السوريين في مصر امورا

تتعلق بالاماني العربية ، وابلغهم ان أقصى ما يطلبه الصهيونيون هو تنظيم فلسطين على أساس « نظام الملة العثماني » ، وان يعطوا حكما ذاتيا كسائر الملل . وكان رد الزعماء السوريين « أن العرب ، مسلمين ومسيحيين على حد سواء ، على استعداد لمقاومة بسط السيطرة اليهودية على فلسطين حتى اخر رجل(١٠٤) » .

لم تكن فلسطين ضمن الموضوعات التي بحثها سايكس مع الحسين في جدة (أيار ١٩١٧). وعاد سايكس الى لندن ليعاود دعمه للنشاط الصهيوني وليحث الحكومة البريطانية على اصدار التصريح المتعاطف معها(١٠٥) . وحين بلغت الصهيونية غاية مساعيها بتصريح بلفور كانت الظروف قد أجبرت العرب ان يلتزموا بتحالف مع نفس الدولة صاحبة التصريح(١٠٦) . واستطاعت المناورات البريطانية أن تحول دون فقدان حسن النية لدى العرب ، وبددت تصريحاتها المتوالية الشكوك التي أثارتها اتفاقية سايكس ـ بيكو وتصريح بلفور وحالت دون توقف الاسهام العربي في الثورة ، فاستقبلت الجيوش البريطانية بالترحيب بوصفها جيوشا للتحرير . كما أن موقف العرب ، سلبا وايجابا أسهم في نجاح تلك الجيوش ، ودخل اللنبي القدس في ١١/١٢/١٩١٧ بعد أقل من ستة أسابيع من اصدار تصريح بلفور . واخذت المعارضة العربية للسياستين الصهيونية والبريطانية اتجاها جديدا بعد أن خول الاحتلال العسكري بريطانيا أن تفعل ما تشاء في بلد محتل .

واخيرا : فان هذه الدراسة كانت محاولة لاعطاء صورة عما كان يجري بين ١٩٠٨ ١٩١٧ ، لا الحكم عليها على ضوء التطورات التالية . وقد تبين من خلالها أن العرب كانوا أكثر احساسا بالخطر الصهيوني مما هو متوقع ، وكانت ردود أفعالهم مبكرة . لذلك لم يكن الصراع مع الصهيونية مفاجئا ، تفجر بعد الحرب(١٠٧) ، حين بدأ التنفيذ الفعلي لتصريح بلفور ، فجذوره موجودة في هذه المرحلة ، وهي تفسر كل مادار في المنطقة فيما بعد .

★ ★ ★

* هذا البحث لن يتناول بالتفصيل نشأة الحركة الصهيونية في أوربا او مظاهر العمل الصهيوني داخل فلسطين ، كذلك لن يفصل في التطورات التي مرت بها الدولة العثمانية او الحركة العربية خلال هـذه الفتـرة .

وحول مزيد من التفاصيل عن موضوع البحث يمكن مراجعة الدراسات التالية :

أ ـ

Mandel , N. Turks , Arabs and Jewish immigration into Palestine 1882-1914.

وهي دراسةمقدمة لنيلدرجة الدكتوراه في مركز الشـرق الاوســـط في كلية سانت انتونـي اوكسفورد ١٩٦٥ ونشرت فيما بعد .

ب ـ

Porath, Y., The Political awakening of the Palestinian Arabs and their leadership towards the end of the Ottoman period.

وهي دراسة مقدمة الى المؤتمر الذيعقد في القدس ١٩٧٠ عن فلسطين في العهد العثماني ونشر تحـت عنوان

Ma'oz, M. (ed.) Studies on Plestine during the Ottoman period , Jerusalem **1975.**

جـ ـ قاسمية ، خيرية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه

وهي دراسة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة ١٩٧٢ نشرت فيما بعد .

الهوامش :

١ ـ خلال الفترة موضوع البحث كانـت فلسطين تقسم اداريا الى المناطق التالية : في الشمال متصرفية عكا وتشمل(اقضية: حيفا ، الناصرة ، طبرية ، صفد) ومتصرفية نابلس و تشمل (قضائي جنين وطولكرم) والمتصرفيتان تتبعان ولاية بيروت . وفي الجنوب متصرفية القدس المستقلة وتشمل أقضية : القدس ، يافا ، غزة الخليل ، بئر السبع وتقع مباشرة تحـت اشـراف الحكومة المركزية في الاستانة .

انظر : برغوثي وطوطح ، تاريخ فلسطين ، القدس ١٩٢٣ ص ٢٥٧ وما بعدها .

(٢) Simon, L., and Stein, L. (eds.) Awakening Palestine, London, 1923,p.251
Cohen, A. Israel and the Arab world, London 1970, pp. 32-38

وحول ماهية الحركة الصهيونية يمكن مراجعة مقال محمد المحمصاني « الصهيونية والصهيونيون » في جريدة فتى العرب ١٩١٤/٥/٤ وكذلك نقولا ، جبرا ، في العالم اليهودي القدس ١٩٣٥ .

(٣) Weizmann, Ch., Trial and Error, London 1950, p. 61

(٤) Zangwill, I., The Return to Palestine, The New Liberal Review, Dec. 1901. p. 627.

ويقول زانغول « .. الان ، وليس في وقت اخر ، تكمن فرصة اسرائيل... بعد ان حملت قناة السويس العالم الى أبواب فلسطين »

(٥) Esco Foundation for Palestine - A Study of Jewish, Arab and British Politics, New Haven, Yale University press, 1947-1949, pp. 335-336

وعن لقاءات هرزل والسلطان انظر
The Complete Diares of Theodor Herzel, translated by H. Zohn, New York 1960 (ed.) by L. Simon pp. 158-159.

(٦) Simon, M,, (ed,) Speeches, Articles and Letters of I, Zangwill, London 1937, p. 80.

في وثيقة تركية تحتفظ بها اسرة أبو الشامات في دمشق ، ويقال ان السلطان عبد الحميد قد بعث بها الى الشيخ محمد ابو الشامات استاذه في الطريقة الشاذلية عن منفاه في سالونيك، يذكر فيها انه لم يتخل عن الخلافة الا لان الاتحاديين قد الحوا عليه بان يصادق على تاسيس وطن قومي لليهود في الاراضي المقدسة ووعدوه مبلغ ١٥٠ الف ليرة تركية ذهبا ورفض .

(٧) حول تطور الموقف العثماني من التدفق اليهودي(انظر التقارير القنصلية البريطانية في :
Hyamson, A., The British Consulate in Jerusalem in relation to the Jews in Palestine, London 1939-1941 pp. 46, 557, 558.

(٨) تقرير هوغارت ، احد العاملين في اجهزة المخابرات البريطانية خلال الحرب في مصر
F.O. 882/17, Arab Bureau Papers, «Syria, Political Situation Since 1880.

(٩) Weizmann, p. 41.

(١٠) Jewish Territorial Organization. I.T.O. Pamphlets (British Museum).

(١١) كيالي ، عبد الوهاب ، تاريخ فلسطين الحديث ، بيروت طبعة اولى ١٩٧٠ ، ص ٤٤ – ٤٥

(١٢) المصدر السابق ، ص ٤٩

(١٣) المقطم ١٨٩٧/١٠/٢٣ مقال كتبه امين ارسلان قائمقام طبرية بعنوان « مملكة صهيون »
المقتطف ١٨٩٨/٤/١ مقال « عودة اليهود الى فلسطين » مجلد ٢٢ جـ ٤ ص ٣١٠ – ٣١١

(١٤) مجلد ١ عدد ٧٦ نيسان ١٨٩٨ ص ٤٤

(١٥) نشر الكتاب في باريس عام ١٩٠٥ بعنوان
Le Reveil de Nation Arabe dans l'Asia Turque.

(١٦) رسالة السفير البريطاني في الاستانة لوثر الى وزير الخارجية غرامي في ١٩١٠/٨/٣١ يشرح اسباب التشدد العثماني وموقف السلطان العثماني من المناورات الصهيونية . وكان لوثر قد وصل الاستانة بعد تغير نظام الحكم. F.O. 424/224. وقد هللت صحيفة L'Aurore اليهودية في الاستانة ١٩٠٩/١٢/٢٧ للتخلص من عدو «اسرائيل»

(١٧) رسالة مارلنغ القائم الاعمال في الاستانة ١٩٠٩/١٢/٢٧ .F.O. 424/222 وكذلك رسالة لوثر ١٩١٠/٥/٢٩ الى غراي وزير الخارجية .F.O. 371/1010/20761 وقد تكون العلاقة بين تركيا الفتاة واليهود والصهيونيين ، التي تبنتها الدوائر البريطانية مبالغ فيها الا ان هذا لا يعني نفي العلاقة كما يميل الى ذلك كتاب :

Lewis, B. The Emergence of Modern Turkey, pp. 211-212.

فقد لاحظ العلاقة كل من زار الاستانة حينذاك ومنهم رفيق العظم في مقال في المقطم ١٩٠٩/٨/١٣

(١٨) رسالة لوثر الى غراي في ١٩١٠/٥/٢٩ حـول مساعي الصهيونية للسيطرة الاقتصادية على الدولة العثمانية .F.O. 371/1010/20761

(١٩) بعد اعلان الدستور العثماني نشط وكلاء المنظمة الصهيونية على المسرح السياسي العثماني فتولى جاكوبسون الاشراف على الدعاية الجديدة واوكلت الى جابوتنسكي مهمة الاشراف على الصحافة التي تديرها الصهيونية

Shechtman, J., Rebel and Statesman, the Vladimir Jabotinsky Story, New York, 1956 p. 150.

وكان المؤتمر الصهيوني العاشر في بال ١٩١١/٨/٨ برئاسة نوردو مناسبة علنية للتصريح رسميا بالاسلوب الجديد للدعاية الصهيونية .Jewish Chronicle 18. 8. 1911

(٢٠) من رسالة لوثر الى غراي ١٩١١/١١/١٨ تعليقا على المقالات الواردة في كتاب صدر عام ١٩١٢ بعنوان

Zionist Work in Palestine, New York 1912.

F.O. 424/229.

وكانت تلك المقالات قد صدرت بالالمانية ١٩١١ في عدد خاص من مجلة Die Welt الجريدة المركزية للمنظمة الصهيونية .

(٢١) من الامثلة على ذلك رسالة نوردو الى Times 30. 12. 1912 لتوجيه الاهتمام الدولي لصالح الاهداف الصهيونية ، ورحلة سوكولوف ممثل المنظمة الصهيونية الى لندن لاثارة الرأي البريطاني بالعطف على الحركة الصهيونية .F.O. 371/1794/10066/6584

ودعم سفير الولايات المتحدة هنري مورغنثو اليهودي ليهود الدولة العثمانية بوجه عام ويهود فلسطين بوجه خاص .Jewish Chronicle 12/12/1913

وتدخل الحاخام باشي ناحوم مرارا في الاستانة لالغاء الاجراءات القديمة بحق اليهود ورفع الحظر على شراء واستملاك الاراضي .

Jewish Chronicle 6. 12. 1912

وعدد من جريدة لاورور مرفقة برسالة لوثر الى غراي ١٩١٣/٣/١٧ و F.O. 424/238

(٢٢) تقديرات النشرة العربية Arab Bulletin في ١٩١٧/١/١٩ وهي النشرة التي كان يصدرهاالمكتب العربي Arab Bureau الذي أسس في القاهرة « شباط ١٩١٦ » كأحد الاجهزة المنفذة للسياسة البريطانية في المشرق العربي خلال الحرب العالمية الاولى وضم المكتب الخبراء البريطانيون فيشؤون المشرق العربي من رحالة وعلماء آثارومستشرقين وضباط ورجال استخبارات .

(٢٣) لفت مراسل Jewish Chronicle في يافا في١٩١٠/٢/٢٥ الانظار الى الاخطار التي يتعرض لهـا اليهود في المستوطنات بعد أن كانوا يأملون ان تكون حياتهم أكثر أمنا في العهد الجديد ، وكانتتهمة موالاة الاتحاديين للصهيونية هي من جملة الاتهامات التي وجهها قادة الحركة العربية الى الاتحاديين مثال ذلك ما كتبه رشيد رضا في المنار جـ٢ م١٦ ص ١٤٥ شباط ١٩١٣ متهمـا جمعيـة الاتحاديين (جمعية الاحمرين الدم والذهب) بالاتفاق مع الجمعية الصهيونية .

(٢٤) صاحب الاصمعي حنا عبد الله عيسى وأسست عام ١٩٠٨

(٢٥) صاحب المنادى سعيد جار الله وصدر عددهـا الاول ١٩١٢/٢/٨ وصرح محررها بانها قد اتبعت منذ تاسيسها مكافحة السياسة الصهيونية .

(٢٦) كان نجيب نصار قد نشر سلسلة من المقالات في جريدته عن الحركة الصهيونية واخطارها اثر مناقشة المبعوثان الاولى للمسألة الصهيونية في اذار ١٩١١ وقد أصـدر هـذه المقـالات في كتيب عنوانـه « الصهيونية » تاريخها ــ غرضها أهميتها ــ في تشرين الاول ١٩١١ .

(٢٧) الاملاك الاميرية الخاصة بالسلطان عبد الحميدوتسمى الجفالك السلطانية او الاراضي المدورة وقد نقلت (دورت) ملكيتها بعد خلعه الى الخزانة العامة وكان الفلاحون قد تنازلوا عن ملكيتها لعـدة أسباب فسجلت باسمالسلطان كي تعفى مـن الضرائب وتنال الحماية ومساحتها ٢٧ مليون كمتتوزع في ولايات سورية والعراق والجزيرة ، وفيأواخر ١٩١٠ طلب نجيب ابراهيم الاصفر أحد اعضاء مجلس ادارة بيروت سابقا امتيازا من وزارة الماليـةلاستثمار الارض مدة ٩٩ عاما مقابل قرض ...١مليون فرنك وأبدت صحف فلسطين وسورية قلقها منأن تكون الصهيونية وراء المشروع خاصة الأمـلاك الاميرية في فلسطين ــ غور بيسان واريحا ــ التيكانت مطمحا صهيونيا . وكانت حملة الصحف ضد المشروع أول عمل موحد واسع ضد تزايدالنشاط الصهيوني بعد عام ١٩٠٨ واجبرت الحكومة علـى التراجـع .

انظر المقتبس ١٩١٠/١٢/١٠ ، الكرمل ١٩١٣/٣/٢١ وأعداد اخرى متفرقة .

(٢٨) مثال ذلك الكرمل « أعداد كانون أول ١٩١٢ »وفيها دعوة الفلاح الى تحسين أساليبه « واعـداد شباط ١٩١٣ » حول محاربة الصهيونية بنفس السلاح التي تحاربنا فيه » ودعوة المواطنين لاصلاح المعارف وتاليف الجمعيات والشركات الزراعيـة والاقتصادية ... الخ .

(٢٩) صاحب الجريدة ومديرها المسؤول عيسى داود العيسى ورئيس تحريرها يوسف العيسى وصـدر العدد الاول ١٩١٢/١/١٤ .

(٣٠) فلسطين ١٩١٤/٤/١ يقول صاحبها ان صوت فلسطين تورده أكثر الصحف والمجلات ، وحينقامت جريدة « احيروت » العبرية في القدس بحملةهجوم على فلسطين شدت الـكرمل ازر فلسطين « الكرمل ١٩١٣/١٢/٢٤ » .

(٣١) جاء في فلسطين ١٩١٣/١/٢٢ » .. انه مادام الصهيونيون يستولون على البلد قرية قرية .. فغدا تباع القدس باجمعها وفلسطين بكاملها ، فاذا لم تتدارك الامر كان حظ الدولة فيها حظها في طرابلس الغرب او ربوع البلقان » .

(٣٢) كان أول تعطيل لجريدة الكرمل ١٩٠٩/٦/٢٥ بعد شهور من صدورها ، وفي تشرين ١٩١٣ كانـت حملة الدس الصهيونية وراء أمـر تعطيل « فلسطين » دون محاكمة ، ووقفت الصحف العربية في سورية ولبنان بجانب فلسطين وشاركت الرأي العربي احتجاجه . وفي نيسان ١٩١٣ واثـر جولـة « مورغنثو » السفير الامريكي في فلسطين أصدرت وزارة الداخلية أمر باغلاق « فلسطين » واقامـة الدعوى على مديرها المسؤول بحجة انها تفرق العناصر . وكانت « فلسطين » قد نشرت فقرة بعنوان « نصيحة » ١٩١٤/٤/٤ وعدت فيه بالاستمرار بالوقوف بازاء الصهيونيين « الى يوم ترتجف فيه اعصاب الامة وترى الهوة الهائلة التي تنتظرها فتدوى دوى السيل الجارف ... وويل لظلمة الشعب من ذلك اليوم » .

(٣٣) اشار مراسل جويش كرونكل في الاستانة في ١٩١٠/٦/١٠ الى حادث محاكمة نجيب نصار في شباط ١٩١٠ المتهم باثارة العــرب ضد اليهود وحضر المحاكمة جمهور غفير من العرب حملوه بعد تبرئتــه في مظاهرات عدائية ضد اليهود كما نقل وكيـل القنصـل البريطـاني في يافـا في نيسـان ١٩١٤ تفاصيل محاكمة صاحب فلسطين فقــد غصت القاعة بمئات العثمانيين والاجانب لحضور المرافعـة التي اتخذت شكل مقاضاة بـين الصهيونية وخصومهـا ..

(٣٤) في مذكرات محمد كرد علي صاحب المقتبس جزء٣ دمشق ١٩٤٩ ص٩١٢ يشير الى انه كتب الكثير عن خطر الصهيونية في جريدته وعاونه اربعة مـن أصدقائه عبد الله مخلص وعمر الصالح البرغوثـي ونجيب نصار وشكري العسلي .

(٣٥) تنبه رشيد رضا خلال اقامته في الاستانة لمدة سنة بعد تغير نظام الحكـم ، الى خطـر التغلغـل اليهودي في أوساط الحكم ونتائجه البعيدة في تحقيق اطماع الصهيونية وكتب عن ذلك في المنار ح٤ مجلد ١٤ ، ١٩١١ ص ٢٦٩ – ٢٧٢

(٣٦) بلغ عدد المندوبين العرب في المبعوثان في الدورة الاولى ٦٠ غربيا من اصل ٢٤٥

(٣٧) خلال مناقشات المبعوثان حول الميزانية اول آذار ١٩١١ تولى نواب المعارضة اثارة المسالة الصهيونيـة منتقدين سياسة جاويد (بيه) المالية وصلتهـا بالصهيونية ، وحاولت الحكومة نفي المخطط الصهيوني واثار طرح المسالة ردود فعل في الصحف العثمانية المعارضة وفي الصحافة العربية مما دفع الحكومة العثمانية الى اعادة النظر مؤقتا في موقفها مـن المسالة ، وهذا الموقف شجـع النـواب العـرب في المبعوثان على اثارة الموضوع ثانية في جلسة أيار ١٩١١
خلاصة المناقشات في الجلسة الاولى في تقرير لوثر ١٩١١/٣/٧ .
F.O. 371/1245/19395/9103 F.

والاهرام ١٩١١/٣/١١
وعن خلاصة مناقشات الجلسة الثانية ورسالة لوثر الى الخارجية ١٩١١/٥/١٧
F.O. 371/1245/19395/9103 F.

وجريدة المقتبس ١٩١١/٥/٣١

(٣٨) شكري العسلي من دمشق عين قائمقاما للناصرة في خريف ١٩١٠ وحاول وقف اتمام عملية انتقال اراضي قرية الفولة (في سهل مرج بن عامر) الى الصهيونيين ولما عزم الوالي على عزله ، وقبل ان يبلغ قرار العزل انتخب مبعوثا لدمشق كانون ثاني ١٩١١ وكان الموقف الذي تبناه في قائمقامية الناصرة له دوره في فوزه بالغلبية الاصوات ، المقتبس ١٩١١/٣/٢

(٣٩) صورة مفصلة عن تقدم العمل الصهيوني في فلسطين بجميع جوانبه من خلال كتابين
Cohen, I., (ed.) Zionist Work in Palestine, New York
Sacher, H., Zionism and the Jewish Future, London 1916

(٤٠) اكدت مجلة The Near East في ١٩١٢/٤/٥ ص ٨١٧ عن مراسلها في الاستانة ان شعور المندوبين العرب الذين يعتبرون تدفق اليهود « كغزو الجراد » لا يمكن ان ينجم عن اي عداء عرقي او ديني بل انه ناجم عن تخوف العرب من ان يقوم اليهود بطلبهم اولا ثم طردهم اخيرا .

(٤١) لم تتلون الحملة الانتخابية في متصرفية القدس في ١٩١٢ باي طابع حزبي - بعكس ما كان يجري خارج فلسطين ، فقد وجهت الدعوة لانتخاب مرشحين يقفون بوجه خطر الهاجرة اليهودية بصرف النظر عن كونهم اتحاديين او غير اتحاديين . المقتبس ١٩١٢/٤/٣

(٤٢) اجرى محمد الشنطي رئيس تحرير جريدة الاقدام (القاهرة) عدة احاديث مع مرشحي المبعوثان ١٩١٤ حول رايهم بالمسالة الصهيونية نشرت في ٢٢ و ٢٩ آذار و ١٢ نيسان و ٣ ايار و ١٤ حزيران ١٩١٤ .

(٤٤) مثال ذلك ما ورد في كلمة روحي الخالدي مندوب القدس خلال مناقشة المبعوثان الثانية حول المسألة الصهيونية ايار ١٩١١ وكذلك مقال فلسطين ١٩١٣/١١/٢٥ حول محاكمة « بيليس » في كييف المتهم بقتل طفل مسيحي ليستعمل دمه في رمز ديني كما يدعون ، واعتبرت « فلسطين » المحاكمة « معرة » القرن العشرين .

(٤٥) شارك اهل فلسطين في تيار الحركة الاصلاحية (مركزها بيروت) وتيار حركة اللامركزية (مركزها القاهرة) بنفس القدر ، ولم يكن بين المجموعتين اي خلاف . انظر المفيد ١٩١٣/٤/٨ عن دعم لائحة بيروت الاصلاحية ، اوراق عوني عبد الهادي ومحب الدين الخطيب تشير الى انتشار فروع اللامركزية في فلسطين .

(٤٦) عبرت جريدة مرآة الغرب (احدى صحف المهجر) ٧ ايار و ٢٥ تموز ١٩١٣ عن الاحساس بالتخوف من اغراض الصهيونية السياسية ، وكذلك الكرمل في ١٩١٣/٢/١١ « وان هذه البلاد لابد ان يمتلكها اليهود ان عاجلا او اجلا سواء في عهد الترك او غيرهم ... وهذه الاطماع لا تقتصر على انشاء دولة في فلسطين بل تمتد الى منطقة الشرق العربي كله اذا لم يتدارك الخطر »

(٤٧) عن تفاصيل ما دار في المؤتمر انظر كتاب : المؤتمر العربي الأول الصادر عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية ، القاهرة ١٩١٣ جمع محب الدين الخطيب .

(٤٨) بلغ عدد الموقعين على برقيات التاييد التي وصلت الى المؤتمر ١٣٩ فلسطينيا من اصل ٣٨٧
Dawn, E., The Rise of Arabism in Syria, Middle East Journal, vol. 16, No. 8 1962, p. 149

(٥٠) تعرض صاحب الكرمل بالنقد واللوم لتجاهــل المسالة الصهيونية في مؤتمر باريس في نــداء وجهــه بتاريخ ١٩١٣/٧/١٥ قائلا : « ... يا طلاب الاصلاح في بيروت ومصر ، تطلبون الاصلاح لبــلاد يسعــى بتملكهــا الصهيونيون ويتغلغلون فيهــا ويقضون على بقاء اخوانكــم »

(٥١) نشرت المقتبس ١٩١٠/٣/١٥ كتابا مفتوحا لعبــد اللــه مخلص الــى مجلس المبعوثان حــول استعمــار الصهيونيين فلسطين وخطر الهجــرة والشراء اليهوديين ، ونبه اعضاء المجلس الــى « أن البــلاد الفلسطينية اصبحت على شفا جرف من الخطر وقد لا يمضي عليها عشرات من السنين الا ويعمل بهــا ناموس تنازع البقاء عمله الطبيعي ... وتصبح البلاد كليا للاجنبي » .

(٥٢) رسالة نائب القنصل في حيفا الى بيروت ١٩٠٩/٣/١٧
F.O. 195/2311.

كذلك اشارت جويش كرونيكل ١٩١٠/١١/٢٥ الي وجود منظمة في حيفا هدفها وضع حد للاستيطان اليهودي تدعمها جريدة الكرمل والمقتبس .

(٥٣) شرح سليمان التاجي الفاروقي في المفيد ١٩١١/٨/١٩ خطة الحزب : حث الامة على مطالبة الحكومة سد باب الهجرة وتطبيق قانون « الجواز الاحمر » ومنع بيع الاراضي والتحقق من تذاكر الاسرائليين العثمانيين واشراف الحكومة على مدارسهم وتحرير أراضي المستوطنات .. وعن نشاط الحزب اقــر احياء ليلة خطابية كل اسبوع لتنبيه الامة وتذكيرها ودعوتها لمباراة الصهيونيين في سبل الحيــاة والعمل والالتجاء الى الحكومة بالطرق المشروعة.

(٥٤) وجهت الكرمل على صفحاتها في ١٩١٣/٨/٨ الدعوة لانشاء هذه الجمعية .

(٥٥) اشارت الكرمل ١٩١٤/٧/١٤ الى تكوين جمعية لمقاومة التيار الصهيوني في استانبول برئاسة الامير علي الجزائري ابن الامير عبد القادر . وكذلك اشارت الإقدام ١٩١٤/٧/١٩ الى خبر تشكيل « جمعية مقاومة الصهيونيــة » في القاهــرة .

(٥٦) أعداد الكرمــل ١٩١٣/٢/١١ ، ١٩١٣/٢/١١ ، فلسطين ١٩١٣/٨/٩ ، ١٩١٣/٤/٢ لحث المواطنين على انشاء الجمعيات وتاليف الشركات الوطنية « والنسج في ذلك على منوال الصهيونيين » .

(٥٧) Kedourie, E., Religion and Politics : The Diaries of Khalil Sakakini , St. Antony's papers, No. 4 Middle Eastern Affairs, No. 1. Oxford 1958, pp. 77 - 93.

(٥٨) الكرمل ١٩١٣/١/٣ تشير الى ان عددا مــن المتنورين وأرباب الصحف والموظفين « قدر لنا هذه الخدمة وادرك الخطر وصار يتعاون معنا » . وكانت حملة الكرمل ضد بيع الاراضي المدورة قد حركت الراي العام للاحتجاج ودفعت الحكومــة الــى تغيير موقفها . واشارت الاقدام ١٩١٤/٥/٣١ الــى ان الرأي العام هو « الكابوس الذي يخشاه الصهيونيون اكثر من الحكومة » .

(٥٩) وجهت الكرمل وفلسطين انتقادات عنيفة الى الزعماء والاعيان الذين تهاونوا في بيع الاراضي او تواطؤوا مع السلطات المحلية لاتمام عمليات البيع . من الامثلة (الكرمل ١٩١٢/١٢/١٠ قرية كركور وبيدوس)، (فلسطين ١٩١٣/٢/٢٢ بيع طواحين نهــر جريشة ـ العوجــة ـ) .

(٦٠) لاحظ مراسل مجلة The Near East ١٩١٢/٢/١٦ في فلسطين مطالعة الفلاحين الصحف باهتمام بالغ ووجد ذلك دليلا على شغف السوريين عموما بالسياسة .

(٦١) اوردت جويش كرونيكل في أعداد مختلفة (١٩١١/٣/١٠ ، ١٩١١/١١/١٧ ، ١٩١١/٦/١٦) أخبار الاشتباكات في منطقة الجليل وطبرية ومرج ابن عامر وزعمت ان اليهود يقعون تحت « وطاة العرب المتعصبين » وفي تقرير قنصل بيروت البريطاني في تشرين الثاني ١٩١١ الى لوثر اشارة الى معارضة الفلاحين للتدفق المستمر لليهود الاجانب لانه يهدد حقوقهم الخاصة .

(٦٢) Golomb, E., The History of Jewish self defence in Palestine, 1878-1921, Tel-Aviv (N.D.), p.7.

(٦٣) Waters , M., Haganah, the **Story of Jewish self** defence in Palestne , London, 1947, p. 13.

(٦٤) رسالة من روبن بالالمانية الى اللجنة التنفيذية الصهيونية في ١٩٠٩/٥/٢٣ ، ملحق لمقال :
Alsberg, P.A. The Arab question in the Policy of the Zionist Executive before the First World War (Hebrew) Shivat Zion vol. 4 1956-57.

(٦٥) مقال Warburg رئيس اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية نشرته جويش كرونيكل في ١٩١٢/١٠/١٨

(٦٦) تعددت شكاوى الحاخام باشي لدى الباب العالي للتدخل لدى السلطات المحلية لحماية المستوطنات (مثال ذلك اشتباكات اهالي قرية زرنوقة ومستعمرة رحوبوت (فلسطين ١٩١٣/٨/١٣)

(٦٧) كانت زيارة عدد من الكتاب السوريين الى فلسطين في تلك الاونة كفيلة باعطائهم عن قرب حقيقة ما يجري ، مثال ذلك مشاهدات جرجي زيدان التي نشرها في الهلال ، نيسان ١٩١٤ عن « فلسطين آثارها وتاريخها واحوالها » ص ٥١٥ الى ٥٢٠ ، ومقال ابراهيم سليم نجار في الاهرام ٩ و ١٠ نيسان/ ابريل ١٩١٤ « الاسرائيليون في فلسطين » .

(٦٨) طرحت فكرة التفاهم على صفحات جريدتي الاهرام والمقطم ودارت مراسلات بشانها بين ١٩١٣ و ١٩١٤ . انظر مقال خيرية قاسمية : مواقف عربية من التفاهم مع الصهيونية في مجلة شؤون فلسطينية ، بيروت العدد ٣١ . وايضا مقال:
Roi, Y., The Zionist Attitude to the Arabs, 1908-1914, Middle Eastern Studies, vol. 4, No. 3, April 1968.

وكان اتجاه الراي العام في فلسطين بوجه عام يعبر عن رفض مطلق لدعوى التقارب ، انظر مثلا (الكرمل ١٩١٤/٤/١٧ ، ١٩١٤/٦/٢ ، فلسطين ١٩١٤/٦/٦ ، مرآة الغرب ١٩١٤/٧/٢١ ، الاقدام ٧ و ١٩١٤/٦/١٤) وكذلك عبرت جماعة العربية الفتاة عن رفضها لفكرة الاتفاق حتى دون شروط كما كتب محمد المحمصاني في فتى العرب ١٩١٤/٦/٦ يقول : « ان حياة الامم فوق كل نفع مادي ... يغررنا به الصهيونيون » .

(٦٩) تصدت « فتى العرب » في بيروت ، والعاملون فيها هم من مؤسسي جمعية العربية الفتاة ، للصحف الاخرى التي تدافع عن الصهيونية في مقـال بتاريخ ١٩١٤/٤/٧ فقالت : « فتى العرب لاترى من وسيلة للوقوف في وجه التيار الصهيوني الا بتقوية الروح القومية في النفوس ... فالقومية التي تخلق القوة ، وتدفع الى تأليف النقابات المالية والعصابات السياسية والاقتصادية لاتقاء هذا الخطر ، وهي السلاح الوحيد الذي تحاربهم به . والذين يحاولون نزع هذا السلاح انما يريدون أن يلقونا عزلا الى ساحة الوغى » .

(٧٠) المنار آذار ١٩١٤ مجلد ١٧ ، ج ٤٩ ، ص ٣١٩– ٣٢٠

(٧١) نشر المحمصاني المقال في جريدة الا قدام (القاهرة) ١٩١٤/٨/١ ، وكان لا يزال يواصل كتابة سلسلة مقالاته حول الحركة الصهيونية في فتى العـــرب .

(٧٢) مقال « الحقيقة في أرض اسرائيل » ورد في كتاب .
Cohen, A., Isreal and the Arab World, ibid, p. 70

(٧٣) Ruppin, A., Three Decades of Palestine, Tel Aviv, 1936, pp. 35-36.

(٧٤) Sereni, E., and Ashery, R.E., Jews and Arabs in Palestine, New York, 1936, p. 59.

(٧٥) Cohen, A., Israel and the Arab World, ibid, p. 14.

(٧٦) ردت جريدة فلسطين على هذه الدعاوى في مقال بتاريخ ١٩١٢/١٢/٧ « ... اننا لانضمر في قلبنا بغضا لامة من الامم ولا ينوء ضميرنا بحمل حقد على طائفة من الطوائف ، اننا نسمى لاسكان الاديان في مكانين شريفين ألا هما القلوب والمعابد » .

(٧٧) مقال « المعاداة للسامية في تركيا »
Jewish Review, Jan. 1912, pp. 383-385.

(٧٨) كان نسيم ملول من أبرز من تصدى للدفاع عن الحركة الصهيونية في الصحافة العربية في مصر ، وهو يهودي مصري من أصل تونسي . وقد غلف الدفاع بدعوى التفاهم والمصالح المشتركة ، ونشر كتابه « اسرار اليهود » للدفاع عنهم . وانتقل ملول الى فلسطين كمراسل للمقطم في يافا . وقد لعب دورا كبيرا من قبل المنظمة الصهيرنية التي أنشأت لها مكتبا صحفيا في ايلول ١٩١١ يتبع مكتب فلسطين ، مهمته متابعة الصحافة العربية وتهيئة الردود المناسبة وتمويل الصحف المناصرة للصهيونية . وقد ظلت مهمة نسيم ملول مجهولة لدى الصحف العربية رغم الشكوك (فلسطين ٨/٢٢/ ١٩١٢) وبمناوراته استطاع أن ينتسب الى فرع حزب اللامركزية في يافا من أجل متابعة الحركة العربية عن قرب (أوراق محب الدين الخطيب) .

(٧٩) منها جرائد النصير ولسان الحال في بيروت ، والنفير في حيفا . وقد فتحت المقطم صفحاتها لبعض الكتاب الصهيونيين الذين تولوا حملة دفاع عن الصهيونية ووضع اليهود ثقتهم فيهـا .

(٨٠) Auerbach, E., The Jewish out look in Palestine. in Cohen, I. (ed.), Zionist Work inPalestin ibd, p. 172.

(٨١) أول من طرح الفكرة لغوى يهودي هو Epstein في عام ١٩٠٧ في مقال بعنوان « مسألة خفية » في دورية عبرية اسمها Hashiloah تصدر في أوديسا ١٩٠٧ ، وطورت الفكرة فيما بعد . مثال ذلك ما نشرته المقطم أيار وحزيران ١٩١٤ في ثلاثة مقالات تحت عنوان « بحث جليل في المسألة الصهيونية زعيم صهيوني يرد على رفيق العظم ويوجب اتفاق العرب والاسرائيليين - » وهي مجموعة من الاحاديث أجراها مراسل المقطم في الاستانة

(٨٢) في مقال لرشيد رضا في المنار جـ ٩م ١٧ آب ١٩١٤ ص ٦٩٧ - ٧٠٨ تعليقا على ترجمة كتاب اوسشكين « البروغرام الصهيوني » يقول : « .. لابد من المسارعة الى تنظيم وسائل الدفاع.. انه لايكاد يوجد شعب من شعوب الارض غافل عن قوته واستعداده كالشعب العربي ، فقوته واستعداده كامنان فيه كمون النار في حجر الصوان تحت الثلج ، فمن ذا الذي يزيل أو يذيب الثلج عن هذا الحجر الصلد ، واين مقدحة الحديد التي تقدح النار من هذا الزند . »

(٨٣) Bentwitch , N., England in Palestine , London 1932, p. 11 Weizmann, p. 191, 243

ونقلت الاهرام في ١٩١٧/٦/٤ ، والمقطم ١٩١٧/٦/١٥ أخبار المفاوضات في لندن

(٨٤) Stein, L. Balfour Decleration, London 1960.

(٨٥) Jabotinsky, V., Turkey and the War, London 1916, pp. 215, 223, 262.

(٨٦) أعداد متفرقة من مجلة The Near East خلال عام ١٩١٦

(٨٧) Weltmann, S., Germany, Turkey and the Zionist Movement, 1941-1918, The Review of Politics, vol. 23, 1961

Aaronson, A., With the Turks in Palestine, London 1917

وكذلك مراسلات الخارجية البريطانية حول أوضاع اليهود في تلك الفترة تحت رقم : 371/3055

(٨٨) Jeffries, J., Palestine: The Reality, London 1939, p. 209

(٨٩) F.O. 882/26 Arab Bulletin. 12.1.1917

(٩٠) F.O. 882/14 Arab Papers. vol. 18, p.pa/7/2

(٩١) Jeffries, p. 211

(٩٢) دليل ذلك الكتاب الذي وضع أثناء الحرب
F.O. 822/14 Po/17/6 Arab Bureau Papers

(٩٣) Sacher (ed.) Zionist and the Future of the Jews, London 1916

عبر احدهم لكتاب المذكرة فقال : « لو ان اليهود أخذوا بلدنا أين يذهب ؟ »

(٩٤) F.O. 882/14 Pa/17/2 Arab Bureau Papers

(٩٥) حول موقف الفئات السورية في مصر خلال الحرب يمكن مراجعة كتاب
Storrs, R, Orientations, London, 1937, p. 412
وكان ستورز السكرتير الشرقي في السفارة البريطانية

(٩٦) Kedourie, p. 47 ff.

(٩٧) اعداد متفرقة من الاهرام والمقطم خلال عام ١٩١٥

(٩٨) الاهرام ١٩١٥/٦/٢٥ مقال كامل مدور (صاحب جريدة الرأي العام البيروتية) وعنوانه « لماذا يجب الا تعطى فلسطين للصهيونية » . وفي الاهرام ١٩١٥/٦/٢٩ جاء الرد الصهيوني بعنوان « لماذا يجب ان تعطى فلسطين للصهيونية » .

(٩٩) ١٨ شوال ١٣٣٤ وكان محب الدين الخطيب يرأس تحرير « القبلة » وعنوان المقال (نحن وأعداؤنا)

(١٠٠) Leslie, Sh., Mark Sykes, his life and etters, London 1923, p. 288

(١٠١) F.O. 822/14 Mis 16/15 Arab Bureau Papers

(١٠٢) من هؤلاء ماسترمان Mastermann احد الذين عملوا في صندوق استكشاف فلسطين قبل الحرب وكتب مقالا في المجلة الجغرافية نقلته The Near East في ١٩١٧/٤/١٦ استمده من تجربته الشخصية في فلسطين

(١٠٣) Kedourie, pp. 79-86
يسهب المؤلف في وصف افكار سايكس « المثالية » حول القوميتين اليهودية والعربية وآمالها في المستقبل

(١٠٤) برقية سايكس الى الخارجية في ١٩١٧/٤/٣ رقم
F.O. 371/3053/88954/84173 F.

(١٠٥) Leslie, p. 268.

(١٠٦) Hourani, A., Arabic thought in the liberal age 1798-1939, Oxford 1962, p. 290

(١٠٧) Storrs, p. 410.

الرّصافة أيّام الغساسنة

مصطفى الحسون
متحف الرقة الاثري

تكاثرت العرب على حدود سورية الشرقية ، خلال القرون الميلادية الاولى ، وازداد ترشحها الى مدنها وقراها . . . وقد قدم الغسانيون من مأرب ، ونزلوا بادية الشام ، وأصبحوا اكبر القبائل العربية ، في القرن الرابع الميلادي ، وامتدت منازلهم بين تدمر شمالا ، والبلقاء جنوبا،وحالفوا البيزنطيين،كما حالف اللخميون الفرس(١).

وفي القرن الثالث ابان ازدهار المملكة التدمرية ، ساعدت سماحة الملك اذينة ، على انتشار المسيحية ، بعد أن منعها التعصب الوثني ، واضطهد النصارى ، ومنح اذينة ، كل طائفة حريتها في ممارسة شعائرها الدينية وخول المسيحيين حق بناء الكنائس حيثما شاءوا ، وكانت أقدم كنيسة معروفة في العالم اليوم ، تعود لعام ٢٣٢ م وتوجد خرائبها بين أطلال مدينة « دورا اوربوس » التابعة لتدمر آنذاك(٢) .

وبعد أن هدم الرومان مباني تدمر الضخمة ، وأباحها اورليان لجنوده سنة ٢٧٢م يعملون السيف في رقاب من بقي من أهلها تقتيلا وتشريدا ، تحول طريق التجارة عنها ، وسلك الفرات والجزيرة عبر الرها (اديسا) ، فأناط البيزنطيون بالعرب الغساسنة مهمة حماية حدود الصحراء ، فاتسعت دولتهم من حوران ، حتى الفرات ، وشملت مدينة الرصافة .

ودخل الغساسنة الدين الجديد ، وكانوا من أشد المتحمسين للمسيحية ، والناشرين للمذهب اليعقوبي . . . وكان لهم الفضل ، في تقليص الوثنية ، وهداية الناس للدعوة الجديدة(٣) . وما نعرفه من الموارد التاريخية ، أن سلطان الغساسنة، كان ممتدا على أطراف بلاد الشام ، أي على المواضع التي رأى الروم ، أن من الأصلح لهم تركها الى أمراء غسان ، لصعوبة ضبطها من الوجهة العسكرية بالنسبة اليهم(٤) .

والغساسنة يشبهون من بعض الوجوه ، خلفاء وأمراء العصر الاموي في الاسلام ، اذ أننا نعلم ان الامويين ، استمروا في الاعتماد على القبائل العربية ، وأقاموا لانفسهم قصورا ، في مختلف أرجاء البادية ، ونقلوا الي تلك القصور ، كل مظاهر عظمة دولتهم ، كيما يبهروا أنظار القبائل العربية المنتشرة في البادية(٥) .

ويفهم من الشعراء العرب أيام الغساسنة ، أمثال النابغة الذبياني ، وحسان بن ثابت والاعشى وغيرهم أن جلق ، والجواء ، وعذراء ، وهي مواضع بأكناف دمشق ، ويضاف اليها مرج عذراء ايضا(٦) أن هذه المواضع منازل بني جفنة ، لذلك ذكرها حسان في شعره ، وذكر كذلك بطن جلق والبلقاء ، والمحبس ، والسند ، وبصرى ، وجبل الثلج . . . الا أنه لايمكن أن يفهم من شعر حسان أو غيره شمول ملك الغساسنة مدينة دمشق(٧) وان زيارته اياها ، أو وصوله مواضع قريبة منها أو ملتصقة بها ، ما كان الا على سبيل المجاز ، أو هو من مبالغات الشعراء ، في التفاخر ، والتباهي ، والمدح .

فاذا استثنينا هذا المورد ، فاننا لانجد أي مورد تاريخي يقول باستيلاء الغساسنة على دمشق أو على مواضع متصلة بها . ولعل مايذكره اولئك الشعراء ، هو تعبير عن قصور وأملاك اشتراها ملوك الغساسنة وأمراؤهم في دمشق ، وفي مواضع حضرية أخرى ، لقضاء بعض الوقت فيها (كما يفعل الامراء في الزمن الحاضر ، من شراء بيوت وقصور في المدن الكبيرة المتحضرة ، أو في اوربا ، يقيمون فيها بعض الوقت للتسلية والراحة) فيزورهم فيها أولئك الشعراء ويصفوها وصفا شاعريا ، يصور الشام ، وما حولها ، كأنها ملك من أملاك الغساسنة . . .(٨) .

وقد نسب أهل الاخبار أماكن أخرى الى الغساسنة ، بالاضافة الى الأماكن التي سبق الحديث عنها منها « صفين » قرب الرقة والرصافة(٩) اذ قالوا : « . . . وكان منزل ـ جبلة بن النعمان ـ بصفين ، وهو صاحب عين أباغ . . »(١٠) .
ومن الأماكن المنسوبة الى الغساسنة موقع « حارب » وقد ورد اسمه في شعر ينسب الى النابغة حيث يقول :

لئن كان للقبرين ، قبر بجلق وقبر بصيداء التي عند حارب

وورد « قصر حارب » وقد نسبه حمزة الى (النعمان بن عمرو بن المنذر)(١١) .
ويذكر أهل الأخبار : « السويداء » في جملة الاماكن التابعة للغساسنة ، وقد رجح حمزة الاصفهاني بناءها الى (النعمان بن عمرو بن المنذر) ، وتقع في حوران(١٢) .

وتعد منطقة الجولان من أشهر مناطق الغساسنة . وقد ورد ذكرها في الشعر العربي ، وفيها قبور بعض الامراء الغسانيين ... وبها كان في الغالب قصر آل غسان. وقد اشتهرت « الجابية » بأنها مقر الملوك ، ولذلك عرفت ب « جابية الملوك » . كما عرفت أيضا ب « جابية الجولان »(١٣) . وفي « البرج » عثر على كتابة يونانية جاء فيها : « البطل الشريف والامير المنذر » . ويدل على أنه من آثار المنذر . وأما بقية المواضع ، وهي عديدة منتشرة في أماكن واسعة ، وللعلماء في أصلها نظريات وآراء(١٤) .

والرصافة من المواضع الهامة عند الغساسنة . ففيها مشهد القديس(سرجيوس) وهو من القديسين الاجلاء عند الغساسنة . وممن كانوا يتبركون بزيارة قبره . ويتقربون اليه بالهدايا والنذور . وكان لآل جفنة مساكن في الرصافة(١٥) .

وفي عصر ازدهار الامارة الغسانية ، شيدت في الرصافة معظم أوابدها الاثرية . من أسوار ضخمة ، وصهاريج عميقة ، لجمع المياه ، كما تركزت حامية تتناسب مع أهمية المدينة(١٦) . وتذهب كثير من الموارد الى أنه أثناء تولي الامبراطور (أنستاس ٤٩١ ــ ٥١٨ م) عرش بيزنطة ، دعيت الرصافة باسم « انسطازيوبوليس » على اسم هذا العاهل ،الذي شيد فيها بناء البازيليكا الفخم . وأنه يمكن للمؤرخ أن ينسب للعاهل نفسه بناء أسوار المدينة ، وصهاريجها سنة ٥٠٤ م(١٧) وجدد (جوستنيان ٥٢٧ ــ ٥٦٥ م) فيما بعد تشييدها ، وترميم أسوارها ، وجعل فيها صهاريج ضخمة من الآجر(١٨) .

الا أننا نقف من هذه المراجع موقف المتحفظ . وكأنها تريد أن تنكر على العرب بناء مثل هذه المباني الرائعة وهم الذين شيدوا « البتراء » وأقاموا هياكل « تدمر » العظيمة ، ورفعوا صروح « الحفر » المنيعة ، وغير ذلك قبل ازدهار الرصافة بقرون . سيما وأن الكتابات التي عثر عليها في أبنية الرصافة تشير الى أسماء الملوك الغساسنة ، وتعطي الادلة على ماتشير اليه الموارد العربية ، التي نلمس من خلالها اثر الغساسنة في تشييد هذه المدينة . وان كنا لا نغفل في الوقت ذاته ماقدمه الاباطرة الروم من بعض المال ، أو الخبرة ، أو غير ذلك .

وتزودنا مخطوطة سريانية ، مؤرخة في عام ٥٧٠ م بمعلومات وافرة عن المراكز الرئيسية لموطن الغساسنة فالوثيقة المذكورة تحمل توقيع ١٣٧ رئيسا من رؤساء الاديار الذين كانوا يدينون ببعض الولاء للحارث الغساني . واذا نظرنا الى مواقع هذه الاديار ككل ، فاننا نجد أنفسنا أمام نوع من الولاية المحلية لاصحاب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح . وتساهم محتويات هذه الوثيقة ، في تأكيد الروايات العربية

المتأخرة عن أرض الغساسنة ، لاسيما وأن الرواة المتأخرين ، قد استمدوا معلوماتهم عن الغساسنة ، من شعراء الجاهلية ، أمثال النابغة الذبياني ، وحسان بن ثابت الانصاري . واخيرا نذكر « حمزة الأصفهاني » الذي وضع قائمة مفصلة ، لاوابد الغساسنة في بلاد الشام ، وأماكن وجودها . بيد أن الأبحاث الاثرية ، لم تحقق الا وجود عدد قليل ، من لائحة حمزة الطويلة(١٩) .

وتذكر الموارد ، أن لآل جفنة في الرصافة مساكن . وقد قاموا باصلاح ما كان يتهدم منها . من ذلك (النعمان بن جبلة) الذي أقام فيها(٢٠) ، وممن ينسب اليهم من الأمراء الغساسنة اقامة المنشآت في الرصافة (الحارث بن جبلة) المتوفى سنة ٥٦٩ م أو ٥٧٠ م — على رأي نولدكه —(٢١) . . . اذ يظن بعض الباحثين أنه هو الذي أمر ببناء كنيسة الرصافة الكبرى ، وليس الملك (جوستنيان) — على رأي روايات — ذلك لان المؤرخ (بروكوبيوس) لم يشر أثناء كلامه ، عن هذا القيصر ، على أثر له في هذه المدينة ، على حين أشار الى تسوير الحارث لها . والى احترامه العظيم للقديس سرجيوس ، المعروف بها . وهو قديس له منزلة كبرى ، في نفوس عرب الشام(٢٢) .

وذكروا أن (المنذر بن الحارث ٥٦٩ — ٥٨٢م) بنى الصهاريج في الرصافة ، لايصال الماء اليها — لانها « بيت القديس سرجيوس » . ذي المكانة العظيمة ، عند عرب الشام . وظهر من كتابة عثر عليها ، في أنقاض كنيسة الرصافة . أن المنذر بنى أو جدد بناء تلك الكنيسة وكان بناؤها على الطراز البيزنطي(٢٣) .

ويرجح أن اقامة هذا الملك كانت في الرصافة معظم أيام حياته . ذلك انه عندما كان في القسطنطينية طلب من البيزنطيين مساعدته في بناء قصر له ، يكون أعظم قصر غساني ، بني حتى أيامه ، وذلك بأن يرسلوا اليه أحسن المعمارين ، والبنائين الحاذقين . فلبى البيزنطيون طلبه وأمدوه بما يحتاج اليه من المعمارين ومن مواد البناء(٢٤) فجعل المنذر هذا القصر قصرا له ، ودارا للضيافة ، خارج الاسوار ، وعلى بعد ٢٠٠ م تقريبا في الجهة الشمالية من سور المدينة . ولا يزال نقش باللغة اليونانية ، في هذا البناء ، يذكر بالمنذر العربي(٢٥) .

ومما يظهر من روايات أهل الأخبار أن (جبلة بن النعمان) كان منزله بـ « صفين » القريبة منها ، وأنه صاحب موقعة « عين أباغ » كما أوردنا سابقا . وأنه قاتل (المنذر ابن ماء السماء) . وكان ملكه ١٦ سنة(٢٦) .

ثم ملك بعده (النعمان بن الايهم ، بن الحارث بن مارية) وكان ملكه ٢١ سنة ، لم يحدث خلالها شيء(٢٧) فتولى بعده (النعمان بن الحارث بن الايهم) ، وفي عهده

أصلحت صهاريج الرصافة ، وصنع صهريجها الأعظم . وكان بعض ملوك لخم خربها(٢٨) وكان ملكه ١٨ سنة . ويرى (موسل) أن النعمان هذا كان قد حارب الفرس ، من حوالي سنة ٦٠٤ حتى سنة ٦١٦ م ، وأنه قد احتمى مرارا بأسوار الرصافة ، وبهذه المناسبة على ما يظهر قد قام بترميم صهاريج المدينة لخزن الماء(٢٩).

وفي نسبة بناء الرصافة ، أو اعادة بنائها ، الى أنستاس أو الى جوستنيان، فقد اختلف المؤرخون الرومان ، والمؤرخون السريان في نسبتها الى هذا أو ذاك ، فكيف لايجري والحالة هذه اغفال دور عرب الشام ، ودور أمرائهم الغساسنة ، في الاعمال البنائية لهذه المدينة . وفي الواقع ان ماتراه من تعظيم عال واجلال رفيع لمكانة القديس سرجيوس عند الغساسنة ، الى الحد الذي جعلهم يبالغون في تعظيمه والاحتفاء به(٣٠) يجعلنا نعتقد انهم كانوا على الدوام منشغلين في بناء وترميم منشآت الرصافة طوال عهدهم . كما أن اقامة الكثير من أمرائهم فيها ، يزيد من هذا الاعتقاد . هذا اذا علمنا أيضا أنها كانت قاعدة الخطوط الامامية لامارتهم في وجه الفرس ، ووجه أعدائهم عرب الحيرة ، الذين كثيرا ماامتهنوا حرمة القبر المقدس في الرصافة ، خلال حروبهم مع الغساسنة ، واعتدائهم على المدينة(٣١) .

ويبدو أن للرصافة عند الغساسنة ، اكثر من اسم واحد ، فقد ذكر ياقوت(٣٢): نقلا عن الاصمعي .. « الزوراء رصافة هشام ، وفيها دير عجيب .. » . وأشار جواد علي(٣٣) الى عجز بيت من شعر النابغة يقول فيه : « .. صليب على الزوراء منصوب » .

كان أهل الرصافة مسيحيين ، وعلى مذهب اليعاقبة ، نسبة الى يعقوب البرادعي ، ومن القائلين بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح . وقبل زمن جوستنيان بقليل صادفت عندهم قبولا مواعظ (سيفروس الأنطاكي) ، زعيم «المينوفيزيين» في سنة ٥١٣ م ، التي تعتبرها الكنيسة الرسمية للدولة « هرطقات » كما اعتبرها بعض المؤرخين نظرية من شأنها زرع الاضطرابات والقلاقل ،وتعطيل النمو الطبيعي للمدن(٣٤) اذ أن الاديار الغسانية التي بلغ تعدادها في بلاد الشام ١٣٧ ديرا والتي كان رؤساؤها جميعهم ، يدينون ببعض الولاء للحارث بن جبلة الغساني(٣٥) ، جعلت الحارث آنذاك مكرها على حماية قومه وأتباعه من تأثير المذهب « الكالسيدوني » ، الذي كان مذهبا رسميا للدولة البيزنطية . وكان هذا المذهب يسيطر على المدن والاسقيفات الملية. ولعل هذا الامر ، هو الذي دفع الغساسنة الى الابتعاد عن المراكز الرئيسية للمذهب الرسمي . والمجوء الى المناطق النائية ، حيث تكمن قوتهم الفعلية(٣٦) .

ونمكنت « النظرية المينو فيزيه Monophysites » في عهد الحارث ،ببلادغسان(٣٧) مما أغضب بيزنطة . فشق الغسانيون عصا الطاعة ، وأعلنوا الثورة ، طيلة ثلاث سنوات ، مما اضطر الامبراطور البيزنطي الى استرضاء الامير الجفني . وقد تم الصلح بين الامبراطوروالحارث عام ٥٥٧ م فيالرصافةعندقبر القديس سرجيوس(٣٨).

ويقال أن الحارث كان قد سعى لدى الامبراطورة (تيودورة) في تعيين (يعقوب البرادعي) ورفيقه (تيودورس) أسقفين للمقاطعات السورية العربية . ونجح في مسعاه هذا في سنة ٥٤٢ ــ ٥٤٣ م وبذلك وطد هذا المذهب في بلاده(٣٩) .

ولمعارضة مذهب اليعاقبة لمذهب الكنيسة الرسمي ، عدّ الروم هذا المذهب من المذاهب المنشقة المعارضة فقاوموه ، وناطلوا أصحابه ، ولاسيما في أيام القيصر (يوسطنيانوس) باعتباره مذهبا من المذاهب المناهضة لسياسة الملوك والدولة ، كمعارضة الاحزاب السياسية في الزمن الحاضر . الا أن الحارث سعى جهد امكانه في تخفيف حدة غضب الحكومة على رجال هذا المذهب ، ومن التقريب ما أمكن بين رجال الكنيستين ، ولجهود الحارث ومسعاه في حماية هذا المذهب ، فضل كبير ، ولا شك ، في بقائه ، وفي انتشاره بين السريان ، وعرب الشام .

وزار الحارث القسطنطينية ، في تشرين الثاني من سنة ٥٦٣ م فاستقبل استقبالا حافلا ، وأثر أثرا عظيما في نفوس أهل العاصمة ، وفي رجال القصروالحاشية ... والظاهر ان الغاية التي من أجلها ذهب الحارث الى القسطنطينية ، هي مفاوضة رجال الحكم فيمن سيخلفه على عرشه بعد وفاته من أولاده ، وفي السياسة التي يجب سلوكها تجاه « عمرو » ملك الحيرة(٤٠) .

وكان العرب اليعاقبة ، يحجون الى مشهد القديس سرجيوس في الرصافة للتبرك به والنذر له ، ويتيمنون به ، ويضعون صورته مع الصليب ، على راياتهم أملا بالفوز في المعارك ، والى هذا القديس أشار الشاعر الأخطل بقوله :(٤١)

لما رأونا والصليب طالعا ومار سرجيس وسما ناقصا
وأبصروا راياتنا لوا معا خلوا لنا زاذان(٤٢) والمزارعا(٤٣)

وهذه دلالة على أن شهرة هذا القديس ، ظلت بين النصارى ، حتى في أيام الاسلام . ولطالما قصد الاعراب كنيسة هذا القديس ، لتعميد ابنائهم هناك ، كما كانوا يعقدون العقود عند قبره ، ويقسمون الايمان عنده ، دلالة على التشديد فيها ،

، صدقهم في الوفاء ، وكان أمراء الغساسنة يبالغون في تعظيمه والاحتفاء به ، ويقصدونه للتبــرك بــه(٤٤) .

وكان مشهده في الرصافة من أهم المزارات التي تقصدها المتنصرة من عرب الشام، مثل الغساسنة وتغلب . وقد تقرب اليه بعض ملوك الغساسنة ، بتقديم الهدايا ، والنذور ، وتزيينه ، وزيارته ، والاعتناء بالمدينة وصهاريجها ، تكريما له وتقربا اليه . وظل هذا المزار مقصودا مدة في الاسلام(٤٥) وعدّه التغلبيون شفيعهم ، وجعلــوا له راية حملوها في الحروب،وكانوا يحملونها مع الصليب،تبركا به وتيمنا بالنصر(٤٦). كما كانوا هم والغساسنة ، يحتفلون في الرصافة ، بعيــد القــديس سرجيوس ، تخليدا لذكراه(٤٧) .

حروب آل جفنة وآل نصر :

يتصف القرنان السادس والسابع الميلاديان بكثرة الحروب بين الفرس والروم . فمنذ عهد قباذ ، لم تستقر الاحوال بين الدولتين الكبيرتين في ذلك العهد ، وواصل قباذ اعمال العداء منذ عام ٥٠٢ م الى حين وفاته في عهد (جوستنيان) . وكان الامر كذلك ، بين المملكتين العربيتن ، الغساسنة ، أحلاف الروم ، والمناذرة أحلاف الفرس . وتتجلى صورة هذه الحرب أيام (الحارث بن جبلة الغساني) والمنذر الثالث بن النعمان) ملك الحيرة(٤٨) .

ويرى بعض الباحثين ان حكم المنذر ، كان حوالي سنة ٥٠٨ م ، أو قبل ذلك بقليل في السنة ٥٠٦ م . وأما انتهاء ملكه ، فكان حوالي السنة ٥٥٤م.(٤٩) .

وقد كان قباذ ملك الفرس ، عقد صلحا مع الروم في عام ٥٠٦ م بعد الحرب التي استمرت من سنة ٥٠٢ م حتى سنة ٥٠٥ م ، غير أن هذا الصلح لم يدم طويلا(٥٠).

ففي سنة ٥١٨ م ، تجدد الخلاف بين الفرس والروم ، على اثر مطالبة قباذ القيصر البيزنطي ، بدفع الاتاوة ، التي اتفق في صلح ٥٠٦ م ، على دفعها للفرس . وبناء على تباطؤ القيصر في دفعها حرض قباذ المنذر على التحرش بحدود الروم . فقام المنذر بغزوها سنة ٥١٩ م .

لقد تمكن المنذر في بعض حروبه مع الروم من أسر قائدين هما (ديموستراتوس = تيموستراتوس) ويوحنا . وأراد القيصر ، أن يفك أسر هذين القائدين ، ويعقد

صلحا وحلفا بين الروم والمنذر . فأرسل ــ على مايظهر ــ وفدا خاصا الى المنذر يضم (ابراهيم Abraham) ، والد الكاتب (نوسوس) و (شمعون الارشامي) و (سرجيوس أسقف الرصافة ــ بيت الرصافة(٥١) وقد وصل الوفد الى المنذر ، وذلك سنة ٥٢٤م . . وقد نجحت مهمة الوفد ، فيما يخص فك أسر القائدين .

وصادف وصول وفد الروم الى المنذر ، وصول وفد آخر من اليمن أرسله « ذو نواس » الملك الشهير المعروف بتعذيبه نصارى نجران الى المنذر ليفاوضه على تعذيب من في مملكته من النصارى وقد دون شمعون الارشامي قصة التعذيب هذه مدعيا انه نقلها من الكتاب الذي قريء على الملك المنذر ، ومن أقوال من عرفه من الحاضرين ، دونها في صورة كتاب ليقرأ في الكنائس ، ويطلع عليه المؤمنون .

وقد نشر هذا الكتاب ، وطبعت ترجمته كذلك .

وذكر أن القيصر (بوسطينوس) كتب الى المنذر بن النعمان طالبا منه اخراج من في ارضه من القائلين بالطبيعة الواحدة . وقد جادلهم في مجلس عقده بحضرة المنذر (شيلا) الجاثليق . فلما سمع هؤلاء بذلك . هرب بعضهم الى نجران ، وأقاموا هناك . وكان من مؤيديهم (الحجاج بن قيس الحميري) صاحب المنذر .

يظهر أن أمل القيصر في عقد هدنة ، أو معاهدة مع المنذر لم يتحقق ، أو أنه تحقق ولكن الى حين . فلما ساءت العلاقات بين الروم والفرس ، ووقعت الحرب سنة ٥٢٨م بين الجانبين هاجم المنذر الروم مؤيدا الفرس ، وكان له أثر خطير في هذه الحرب . وقد توغل في بلاد الشام ، وغنم منها غنائم كثيرة ، ولكنه لم يبق فيها امدا طويلا . فعاد مع جنوده سريعا الى قاعدته ، كعادة سائر الملوك ، بعد ان أشبع نفسه من غنائم الحرب . ثم جدد هجومه على الشام في السنة نفسها ، وبعد مدة قصيرة من هجومه الاول . فتوغل فيها حتى بلغ حدود أنطاكية(٥٢) واحرق عددا من المواضع ، ومنها موضع « خلقدونيا » . وقد زعم بعض المؤرخين السريان انه ضحى بـ ٤٠٠ راهبة للعزى . وهي دعوى تحتاج بالطبع الى درس .

وقد عرض ابن العبري ، توغل المنذر في أرض الروم ، واستيلائه على ارضين واسعة ، شملت كل منطقة الحدود ، ومنها أرض الخابور ونصيبين ، حتى بلغ حمص وافامية وأنطاكية ، زاعما أنه قتل عددا كبيرا من السكان . وخرب أكثر تلك الارضين ، ذاكرا أنه اختار من تلك الاسرى ٤٠٠ راهبة أخذهن لنفسه ، غير أنه لم يذكر انه قدمهن قربانا للعزى(٥٣) .

وقد اضطر هذا الغزو الامبراطور (جوستينان) الى نصب (الحارث بن جبلة الجفني) « فيلارخا = فيلاركا » ـ أي عاملا على عرب الشام لحماية الحدود من اعتداءات المنذر وعرب العراق . ولقد مر معنا قيام المنذر ، وأحد قواد الفرس ، في سنة ٥٣١ م بمهاجمة منطقة الفرات ـ وهي منطقة فوماجين ـ وكيف تصدى لهما القائد (بليزاريوس) . ثم التقيا به عند الرقة . فانتصر عليه . وكان ذلك في السنة الرابعة من حكم جوستنيان(٥٤) .

وعلى الرغم من صلح عقد في عام ٥٣٢ م بين الروم والفرس ـ أيام كسرى أنوشروان ـ لم ينقطع النزاع بين الحارث الجفني ، والمنذراللخمي ، بسبب اختلافهما على الأتاوة التي تجبى من أعراب الـ (Srata) ـ اي المنطقة الواقعة في جنوب تدمر ، على الطريق الحربي للرومان . وهي منطقة رعي لاشجر فيها ، ولا زراعة ، تمر بها الطرق البرية الموصلة الى بلاد الشام من الفرات ، ويرعى فيها أعراب العراق ، وأعراب الشام . وقد ألف جوستنيان لجنة تحكيم ، لم تتمكن من فض النزاع . وقد اتهم الفرس اعداءهم الروم بأنهم يريدون الاتصال سرا بالمنذر ، ورشوته ، لتحريضه على القيام ضد الفرس(٥٥) ، وبعدمراسلات بين الفرس والروم .دون بعضها (بروكوبيوس) وهي مراسلات جميلة ، ترينا فن الدبلوماسية ومنطق الملوك في ذلك العهد ، هاجم الفرس الروم في عام ٥٤٠ م . وغزا الحارث الجفني أرض الجزيرة ، للوقوف على قوة الفرس ، ومقدرتهم ، وهاجم المنذر اللخمي ، بلاد الشام ، فبلغ فينيقية ، وتوغل في مناطق واسعة من لبنان(٥٦) .

ويبدو أن الرصافة قد تعرضت لهجوم قام به الفرس انفسهم عليها أيام كسرى أنوشروان ، أثناء حملته على سورية الشمالية واستيلائه على المدن ومنها الرقة(٥٧) الا ان حملته على الرصافة قد فشلت ، بفضل أسوارها المنيعة ولم يستطع الوصول الى كنوزها ، عام ٥٤٢ م(٥٨) .

ولكن المناوشات بين الحارث والمنذر ، لم تنقطع بالرغم من الهدنة ، التي اتفق الفرس والروم على عقدها لمدة خمس سنوات ، وذلك في سنة ٥٤٥ م . فبعد مدة قصيرة من التوقيع عليها ، عادت نيران الحرب فاستعرت بين الحارث والمنذر من غير أن يتدخل الفرس والروم ، في هذا النزاع . وقد تمكن المنذر من مباغتة أحد أبناء الحارث ، واسمه (جبلة)(٩) وكان يكلأ خيله في البادية ، فأسره ، وقدمه على ما يقوله (بروكوبيوس) ضحية الى (العزى Aphrodite) .

وبعد أن جمع كل واحد منهما كل ما يملك من قوة ، ومن حديد . اشتبكا في حرب جديدة ، انتصر فيها الحارث انتصارا كبيرا ، وقتل عدد كبيراً من جنود خصمه ،

فلما رأى ماحل به فرهو ومن بقي حيا من اتباعه ، تاركا اثنين من ابنائه في جملة من وقع في الأسر(٦٠) .

وختم عام ٥٥٤ م هذا النزاع العنيف الذي أتعب الحارث والمنذر ، فاستراح الجانبان . ختم بسقوط المنذر بن النعمان (موندر برنعمن) ملك العرب، صريعا ، بيد خصمه ، الحارث بن جبلة ، بعيدا عن عاصمة ملكه .

ففي منطقة قنسرين ، على روايات المؤرخين في السنة ٢٧ من حكم الامبراطور جوستنيان هاجم المنذر منطقة « Rhomayie » التابعة لحكم الروم ، فنازله الحارث بن جبلة ، وتغلب عليه وقتله عند عين « عواديا Wdaya». في منطقة قنسرين . وقد سقط في هذه المعركة أحد أبناء الحارث . فقد ذكر ابن العبري : ان برحيرت Bar-Herath) ـ اي ابن الحارث ، سقط قتيلا في الحرب(٦١) وعواديا هي « العزية » على راي ـ موسل ـ وهي من مواضع منطقة « بالميرينا Palmyrena» ـ أي منطقة تدمر ـ ومعظم هذه المنطقة من أعمال قنسرين(٦٢) . وعلى رأي (نولدكه) ان هذه المعركة ، كانت بالقرب من « الحيار » ، وأنها « يوم حليمة » المشهور في الاخبار العربية . وفي الأمثال : « مايوم حليمة بسر ». دلالة على شهرة ذلك اليوم(٦٣) .

وبعد وفاة الحارث بن جبلة ، تولى ملك الغساسنة ابنه (المنذر بن الحارث ٥٦٩ ـ ٥٨٢ م) وهو : ابو كرب الذي ورد اسمه في نص سرياني ، عثر عليه في احدى ضواحي تدمر ، وهو نص ديني ورد فيه اسم الاسقفين ، يعقوب ، وتيودور وهما : (يعقوب البرادعي) وصاحبه(٦٤) .

كان المنذر معاصرا لـ (قابوس Chabus بن المنذر) ملك الحيرة(٦٥) ، اذ ما ما كاد هذا يتولى الحكم ، حتى أغار على بلاد الشام(٦٦) ، وقد ذكر ابن العبري : ان المنذر بن الحارث (منذر برجرت) كان نصرانيا ، وأن جنوده كانوا نصارى كذلك . ولم يشر الى نصرانية قابوس. ويفهم منه أن قابوس ، أغار على النصارى(٦٧) . وقد ظفر قابوس بغنائم عديدة ، اخذها وعاد بها ، غير أن المنذر جمع جيشه ، وسار يتعقبه، فلما التقى به تغلب عليه ، وأخذ منه اموالا كثيرة ، وعددا كبيرا من الجمال .

ويظهر من رواية لـ(يوحنا الافسوسي)(٦٨) . ان الملك قابوس ، انتهز الفرصة ، عند وفاة الحارث بن جبلة ، فباغت الغساسنة ، بهجوم مفاجيء في عقر دارهم . فأسرع عندئذ المنذر بن الحارث ، وجمع جمعه ، وفاجأه بهجوم مقابل ، لم يتمكن قابوس من

الشبات له ، فانهزم هزيمة منكرة ، بحيث لم ينج من أصحابه الا القليل . وفر هو ومن سار معه من الناجين ، في اتجاه الفرات ، تاركا عددا من الامراء اللخميين أسرى في أيدي المنذر .غير أن المنذر ، سار في أثرهم ، حتى كان على ثلاث مراحل من الحيرة(٦٩) ويرى نولدكه : أن هذه المعركة كانت في يوم ٢٠ أيار ـ مايس من سنة ٥٧٠ م وانها هي ـ معركة عين أباغ ـ(٧٠) .

وبعد قليل من هذه الهزيمة ، وفي السنة نفسها ، جرب قابوس حظه مرة اخرى ، غير انه مني بخسارة جديدة(٧١) . فذهب الى الفرس يلتمس منهم عونا ومددا(٧٢) . وجرب حظه مرة أخرى منتهزا ، فرصة القطيعة بين المنذر ، والامبراطور (جستين الثاني ٥٦٥ ـ ٥٧٨ م) . وهي قطيعة لانعلم أسبابها على وجه التحقيق(٧٣) وانما يعزو ابن العبري سببها الى مطالبة المنذر للامبراطور بالمال ليتمكن به من اعداد جيش قوي منظم ، يستطيع الوقوف به أمام الفرس . فأغار على حدود الروم ، وتوغل في الارضين التابعة لهم . حتى وصل اتباعه الى منطقة انطاكية(٧٤) مما أغضب بيزنطة . وأحس المنذران الروم قد دبروا له مؤامرة ،وان الامبراطور أمر عامله البطريق (مرقيانوس Marcianus) بأن يحتال عليه ليقتله فزاد تمرده على الروم . وغادر ارضهم الى البادية ، فانتهز عرب الحيرة هذه الفرصة المواتية فأمعنوا في غزو بلاد الشام لمدة ثلاث سنين وايقاع الرعب في نفوس سكان القرى المجاورة لهذه الحدود ، مما حمل الروم على مراسلة المنذر ، والتودد لاسترضائه ، حتى اذا ما تلطف الجو ، أرسلوا اليه البطريق (يوسطنيانوس) ليجتمع به ، في مدينة الرصافة ، عند قبر القديس سرجيوس ، لاقناعه بترك موقفه ، والموافقة على العودة الى محله(٧٥) .

وعند قبر القديس عقد الصلح بينهما في صيف ٥٧٨م . فعاد المنذر الى أرضه ليقوم بالدفاع عن حدود بلاد الشام(٧٦) ، فجمع المنذر اتباعه ، وفاجأ المناذرة بهجوم خاطف ، كابدت منه الحيرة الامرين ، وأطلق من كان في سجون الحيرة من أسرى الروم ، وقد وقعت هذه المفاجأة سنة ٥٧٨ م ، ويظن (روشتاين) انها وقعت بعد وفاة قابوس ، في عهد المنذر الرابع ، أخي قابوس ، وخليفته في الملك(٧٧) .

وكان المنذر كأبيه من القائلين بمذهب الطبيعة الواحدة . والمدافعين عنه ،لذلك انتهز فرصة وجوده في القسطنطينية ، فسعى في اقناع رجال القصر بالتسامح مع رجال مذهبه ، والصفح عنهم ، ويظهر انه عقد هناك مجمعا في اليوم الثاني من شهر آذار سنة ٥٨٠ م لمعاضدة هذا المذهب ، والدفاع عنه ، غير أنه خابت مساعيه بالرغم من اظهار البطارقة ، رغبتهم في ذلك ، وعدم ممانعتهم فيه(٧٨) .

ولما حاول الروم غزو الفرس في سنة ٥٨٠ م ، وجدوا الجسر المنصوب على نهر الفرات مهدما ، فاضطروا الى التراجع ، وترك الغزو . وكان المنذر معهم في هذه الغزوة ، فذهبوا الى أن المنذر ، كان على اتفاق سري مع الفرس . وانه هو الذي أوعز بهدم الجسر ، ليكتب للحملة الاخفاق . وتدبروا القبض عليه ، والايقاع به ، انتقاما للخيبة التي منوا بها .

ولما عاد المنذر ، فغزا أرض الحيرة بنفسه ، فيما بعد ، ملحقا بالمدينة اذى كثيرا ، جاعلا اياها طعمه للنيران ، اتخذ الروم من هذه الغزوة دليلا على تحدي المنذر لهم ، ورغبته في الخروج عن طاعتهم فقرروا الانتقام منه بقتله ، فأصدروا الى حاكم بلاد الشام (ماكنوس Magnus) . صديق المنذر(٧٩) أمرا سريا ، بالعمل على قتله . وصادف أن الروم ، كانوا قد انتهوا من بناء كنيسة « حوارين » . وقد عزم ماكنوس ، على تدشينها . فكتب يدعو صديقه الى الاحتفال بذلك . فلما كان على مقربة منه ، قبض عليه وأرسله مخفورا الى العاصمة ، حيث أجبر على الاقامة فيها مع احدى نسائه ، وبعض أولاده وبناته ، وذلك في أيام الامبراطور (طباريوس) في بداية سنة ٥٨٢ م .

ولما انتقل العرش الى (موريقيوس) وكان يكرهه ، ويعاديه . أمر بنفيه الى صقلية ، وبقطع المعونة التي كان الروم يدفعونها الى الغساسنة في كل عام (٨٠) .

ومن هنا نرى أن بناء الغساسنة اخذ بالتصدع ، وانقسم الامراء على انفسهم ، وذلك حوالي سنة ٥٨٣ أو ٥٨٤ م ـ على تقدير نولدكه ، ويشير ، ميخائيل السوري وابن العبري . . . الى خمس عشرة فرقة ، تركت بعضها ديارها ، فهاجرت الى العراق وتشتت الباقون ، ولم يبق لهم شأن يذكر ، ولم يشر الكتبة السريان ، أو البيزنطيون الى ملك الغساسنة ، بعد هذا الحادث ، وهو أمر يؤسف له غاية الاسف ، اذ حرمنا بذلك من الحصول على وثائق مهمة تساعدنا ، في معرفة تاريخ عرب الشام(٨١) .

لقد اعقب هذا التصدع حدوث اضطرابات في الامن ، وفوضى بين القبائل ، التي اخذت تتنافس للحصول على الرئاسة والسيادة(٨٢) . حتى الرصافة لم تمنع قدسيتها الاعراب ، ولاسيما اعراب العراق من التحرش بها ، فغزتها مرارا ، وأخذت قبيلة تغلب صورة القديس ، بعد عودتها من غزو المدينة ، كما هدم أهل الحيرة ، أسوار المدينة مرارا(٨٣) . ولخطورة مثل هذه الاحوال بالنسبة الى الروم ، ولسلامة الحدود ، فقد حملوا على التفكير في اختيار رئيس قوي ، من سادات القبائل

المتنافسين ، ليقوم بضبط هذه القبائل ، واعادة الامن الى نصابه وحماية الحدود من هجمات عرب الحيرة(٨٤) .

وزاد في ربك الغساسنة ، وفي انقسامهم على انفسهم ، غزو الفرس لبلاد الشام سنة ٦١٣ ـ ٦١٤ م واكتساحهم لها جميعا . وصار عرب الشام ، أمام حكام جدد ، لم يألفوا حكمهم من قبل ، ولكن ألفوهم دائما ، في جانب عرب الحيرة ، أعداء الغساسنة ومنافسيهم(٨٥) .

ولا يمكن اعتبار السادة ، في بلاد غسان ملوكا ، بعد سنة ٦١٤ م واكتساح الفرس بلادهم ، وانقسام الغساسنة على انفسهم ، فالذين يذكرون منهم على أنهم ملوك ، لم يكن مجال حكمهم كبيرا واسعا . وهم لم يكونوا في الواقع ، الا سادات بيوت ، وسادات عشائر منشقة ، تمسكت باللقب القديم الموروث ـ لقب ملك ـ وكان بعضهم يعاصر بعضهم الاخر ، ويدعي الرئاسة لنفسه، وذلك بحسب تخاصمهم . ولهذا كثرت أسماؤهم ، في قوائم المؤرخين ، وقد انحسر مد حكمهم وانكمش ، فاقتصر على البوادي ـ ولا يتعارض ذلك بالطبع مع ورود بسكناهم في قصورهم ، عند أطراف المدن ، ومشارف القرى . فان سادات القبائل في هذا اليوم أيضا ، يحكمون القبائل ، ويعيشون في قصور لهم في المدن ، وهم لا يحكمون بالطبع المدن ـ (٨٦) .

ويرى ـ موسل ـ أن (النعمان بن الحارث) قد حارب الفرس من حوالي سنة ٦٠٤ م حتى سنة ٦١٦ م ، وقد احتمى مرارا بأسوار الرصافة(٨٧) الى أن غزاها (كسرى الثاني ـ ابرويز) أثناء حملته على بلاد الشام ومصر ، فتمكن من التغلب عليها ونهبها ، رغما من تجديد الحصون والاسوار الذي قام به (موريكيوس)(٨٨) .

وقد تمكن الغساسنة من رؤية وجوه البيزنطيين مرة أخرى ، وذلك حوالي سنة ٦٢٩م . بعد أن طرد البيزنطيون الفرس من الارضين التي استولوا عليها ، راجلوهم عنها ، وأعادوا فرض حكمهم عليها . غير ان الاقدار أبت أن تبقيهم هذه المرة مدة طويلة في بلادالشام ، فأكرهتهم على فتح أبوابها للاسلام. فتساقطت مدنها في ايدي المسلمين ، تساقط أوراق الشجر في أيام الخريف(٨٩) . فغدت ممالك الشرق كلها بعضا من ولايات الخلافة الاسلامية .

* * *

الحواشي :

(١) مقال الدكتور سليم عادل عبد الحق ، ، الحوليات الاثرية العربية السورية ، المجلد ١٠ لعام ١٩٦٠ ، ص ٢٠ .

(٢) مقال خالد أسعد ، في المرجع نفسه ، المجلد ٢٠ لعام ١٩٧٠ ص ٥٧ .

(٣) المرجع السابق نفسه : ص ٥٦ .

(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي ، جـ٣ ، ص ٤٣٩ .

(٥) مقال فرانسيس بيترز ، في الحوليات الاثريــة لعربية السورية ، المجلدان ٢٧ ــ ٢٨ لعامي ١٩٧٧ ــ ١٩٧٨ ، ص ٣٢٠ .

(٦) المفصل ، جـ٣ ، ص ٤٣٧ ومابعدها .

(٧) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٣٨

(٨) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٣٩

(٩) المرجع السابق نفسه ، ٤٢٢

(١٠) خطط الشام ، جـ٥ ص ٢٦٢ ، والمفصل ، جـ٣ ، ص ٤٣٩

(١١) المفصل ، جـ٣ ص ٤٣٩

(١٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٤٠

(١٣) المفصل ، جـ٣ ، ص ٤٤٠

(١٤) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها

(١٥) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها

(١٦) مقال الدكتور جورج سمارة ، في مجلة العمران ، عدد ٣٧ ــ ٣٨ شباط وآذار سنة ١٩٧١ (خاص بالرقة) ص ٨٨ .

(١٧) المرجع نفسه ص ٨٩ .

(١٨) الشرح على مقال الدكتور سليم عادل عبد الحق ، في الحوليات الاثرية العربية السورية ، المجلد ١ لعام ١٩٥١ ، ص ٩٩

(١٩) مقال فرانسيس بيترز ، في الحوليات الاثرية العربية السورية ، المجلدان ٢٧ ــ ٢٨ لعامي ١٩٧٧ ــ ١٩٧٨ ، ص ٣١٧

(٢٠) المفصل ، جـ٣ ، ص ٤٤٠

(٢١) المرجع نفسه ، ص ٤١١ وما بعدها

(٢٢) المرجع نفسه ص ٤١١

(٢٣) المرجع نفسه ص ٤١٥

(٢٤) المرجع نفسه ص ٤١٥

(٢٥) مقال الدكتور يوسف سمارة ، في مجلة العمران عدد ٢٧ ـ ٢٨ شباط وآذار ١٩٧١ (خاص بالرقة) ص ٨٩

(٢٦) المفصل ، جـ٣ ، ص ٤٢٢ وخطط الشام ، جـ ٥ ، ص ٢٦٢

(٢٧) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها

(٢٨) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها . ومعجم البلدان لياقوت الحموي ، جـ ٤ ، ص ٢٥٥ . وخطط الشام ، جـ ٥ ، ص ٢٦٢ .

(٢٩) المفصل ، جـ ٣ ص ٤٢٢ .

(٣٠) المرجع نفسه ، جـ ٦ ، ص ٦٣٣ .

(٣١) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

(٣٢) معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٢٥٥ .

(٣٣) المفصل ، جـ ٦ ، ص ٦٥٠

(٣٤) مقال ادمون فريزول ، تلخيص وتعريب جورج حداد ، في الحوليات الاثرية العربية السورية ، المجلدان ٤ ـ ٥ لعامي ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ ، ص ١٤٣

(٣٥) مقال فرانسيس بيترز ، في الحوليات الاثرية العربية السورية ، المجلدان ٢٧ ـ ٢٨ لعامي ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ ، ص ٣١٧ .

(٣٦) المرجع نفسه ، ص ٣١٨

(٣٧) عصر السريان الذهبي ، للفيكنت فيليب دي طرازي ، ص ١٠٨

(٣٨) مقال غسان الترجمان في ، مجلة صوت الرافقة ، لعام ١٩٦٨ ، ص ٧٦

(٣٩) المفصل ، جـ ٣ ، ص ٤٠٨ وما بعدها

(٤٠) المرجع نفسه ، ص ٤٠٩

(٤١) المفصل ، جـ ٦ ، ص ٦٣٣

(٤٢) تل زاذان : بجوار الرقة .
ـ معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٤٠٥ . ومراصد الاطلاع ، لابن عبد الحق البغدادي ، جـ ٢ ، ص ٦٥٣ .

(٤٣) فأجابه جرير :
أفبالصليـــب وماســرجيس تنقــي شهبـــاء ذات مناكـــب جمهـــورا

وقال :
يستنصـــرون بما ســرجيس وابنـــه بعـد الصليـب ، ومالهـم من ناصر
المفصل ، جـ٦ ، ص ٥٩٣ .

(٤٤) المفصل ، جـ ٦ ، ص ٦٣٣ .

(٤٥) المرجع نفسه ، جـ٦ ، ص ٥٩٣

(٤٦) المرجع نفسه ، جـ٦ ، ص ٥٩٣

(٤٧) المرجع نفسه ، جـ٣ ، ص ٢٢٢

(٤٨) المرجع نفسه جـ٣ ، ص ٢٢٢

(٤٩) المرجع نفسه جـ٣ ، ص ٢١٩

(٥٠) المرجع نفسه جـ٣ ص ٢١٩

(٥١) سرجيوس : هو مؤلف القسم السرياني الخاص بـ « شهداء العربية الجنوبية » ـ أي شهداء نجران ـ وقد دون في عهد اسقفيته للرصافة أسمــاء الشهداء على الجدار الشمالي للكنيسة الكبرى ـ كنيسة القديس سرجيوس ـ . ويظهر مما ورد في كتاب الشهداء الحميريين ، وفي رسالة شمعون الارشامي أن يعقوب السروجي أسقف سرجيو بوليس ـ أي الرصافة ـ كان من رجال البعثة التي أوفدها القيصر يوسطينوس Justin الاول الى المنذر الثالث ملك الحيرة .
المفصل ، جـ٣ ، ص ٢٢٠ ، ٤٦٦

(٥٢) المفصل : جـ٣ ، ص ٢٢٠ .

(٥٣) المرجع نفسه ، ص ٢٢١

(٥٤) المفصل ، جـ٣ ، ص ٢٢١

(٥٥) المرجع نفسه ، ص ٤٠٨

(٥٦) المرجع نفسه ، ص ٢٢٢ . وخطط الشام ، جـ١ ، ص ١٠٣

(٥٧) مختصر الدول ، لابن العبري ، ص ٨٧ . ودائرة المعارف الاسلامية ، المجلد ١٠ ، ص ١٥٩

(٥٨) مقال الدكتور يوسف سمارة في مجلة العمران ، عدد ٣٧ ـ ٣٨ ، شباط واذار ١٩٧١ ، (عدد خاص بالرقة) ص ٨٩

(٥٩) المفصل ، جـ٣ ص ٤٠٨

(٦٠) المرجع نفسه ، ص ٢٢٤

(٦١) المرجع نفسه ، ص ٤٠٨

(٦٢) المرجع نفسه ، ص ٢٢٧

(٦٣) الفصل ، جـ٣ ، ص ٤٠٨

(٦٤) المرجع نفسه ، ص ٤١٣

(٦٥) أخ عمرو بن هند ، أو - عمرو بن المنذر ، المعروف بـ (مفرط الحجارة) - المرجع نفسه ، ص ٢٥٨

(٦٦) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها

(٦٧) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها

(٦٨) ياحنا الافسوسي : عاش في القرن السادس الميلادي . وقد توفي سنة ٥٨٥ تقريبا . المرجع نفسه ، ص ٢٥٧

(٦٩) المرجع نفسه ، ص ٢٥٩

(٧٠) المرجع نفسه ، ص ٢٥٩ ، ٤١٣

(٧١) المرجع نفسه ، ص ٢٥٩

(٧٢) المرجع نفسه ، ص ٢٥٨

(٧٣) المفصل ، جـ٣ ، ص ٢٥٩

(٧٤) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها

(٧٥) المرجع نفسه ، ص ٢٥٩ ، ٤١٣

(٧٦) المرجع نفسه ، ص ٤١٣

(٧٧) المرجع نفسه ، ص ٢٥٩

(٧٨) المرجع نفسه ، ص ٤١٤

(٧٩) المفصل ، جـ٣ ، ص ٤١٥

(٨٠) المرجع نفسه ، ص ٤١٦

(٨١) المرجع نفسه ، ص ٤١٧

(٨٢) المرجع نفسه ، ص ٤١٧

(٨٣) المرجع نفسه ، ص ٤١٥

(٨٤) المرجع نفسه ، ص ٤١٧

(٨٥) المفصل ، جـ٣ ، ص ٤١٨

(٨٦) المفصل ، ص ٤١٩

(٨٧) المفصل ، ص ٤٢٢

(٨٨) مقال الدكتور يوسف سمارة في مجلة العمران ، عدد ٣٧ - ٣٨ شباط واذار ١٩٧١ (خاص بالرقة) ص ٨٩

(٨٩) المفصل جـ ٣ ص ٤١٨

مرافق الأمن والتعليم والأشغال العامة

في فلسطين

كما يكشف عنها موظف كبير في الإدارة الانتدابية

د. أحمد طربين
جامعة دمشق

الموظف العربي : هو ميشيل ابكاريوس ، مواطن يحمل الجنسية الفلسطينية ، ولد في مدينة بيروت عام ١٨٨٤ وانتسب الى المدرسة الابتدائية في حي المصيطبة عام ١٨٩٢ حيث أمضى ثلاثة اعوام ، وتابع دراسته الابتدائية والثانوية في مدرسة عينطورة خلال ستة أعوام ، التحق بعدها بالكلية الانجيلية السورية (الجامعة الامريكية في بيروت اليوم) ودرس العلوم التجارية خلال أربعة أعوام حصل في نهايتها على شهادة البكالوريوس . وغادر بيروت عام ١٩٠٥ الى القاهرة للالتحاق بأفراد اسرته ، وعمل في بنك كريديه اليونيه هناك . وما لبث أن استقر في الخرطوم لفترة قصيرة عمل خلالها مع حكومة السودان ، ثم توظف في بنك مصر بالخرطوم واصبح مساعدا للمدير ، وتولى بعد ذلك منصب مدير بنك مصر في بور سودان ، حتى اذا اصيبت اعمال البنك المذكور بالشلل ، تركه ابكاريوس وعاد الى مصر عام ١٩١٢ وعين في الادارة المالية بالمنصورة . وفي عام ١٩١٤ أقبل على دراسة الحقوق حتى اذا استوعب موضوعاته ، مثل أمام لجنة فرنسية جامعية كانت تحضر سنويا الى مصر لفحص الطلبة المنتسبين الى مدرسة الحقوق . وفي عام ١٩١٧ ادى الفحص النهائي أمام اللجنة المذكورة فنجح ونال شهادة الليسانس في الحقوق ، ثم نقل الى الادارة المالية في طنطا . وبعد الاحتلال البريطاني لفلسطين ، قصد ابكاريوس مدينة بيت المقدس عام ١٩٢٠ . وعين في الادارة المالية للقوات البريطانية في فلسطين (ادارة بلاد العدو المحتلة) التي تحولت الى حكومة الانتداب بعد أن تسلمت الحكومة المدنية سلطاتها من الادارة العسكرية بفلسطين . وفي عام ١٩٢٥ رقي الى وظيفة مدير الخزينة ثم اصبح نائبا للسكرتير المالي ، وقد أحيل على التقاعد عام ١٩٤٤ فدخل ميدان القانون وزاول الاستشارات الحقوقية .

وبعد نهاية الانتداب البريطاني لفلسطين ١٩٤٨ قصد مدينة بيت لحم . وفي آب من العام نفسه تم الاتفاق بين الزعماء الفلسطينيين وجامعة الدول العربية على تشكيل (حكومة عموم فلسطين) ، وتألفت هذه الحكومة اثر انعقاد مؤتمر غزة

(١ تشرين الاول ١٩٤٨) برئاسة أحمد حلمي باشا عبد الباقي ، واختير ابكاريوس وزيـرا للماليـة .

وفي صيف عام ١٩٤٩ نزح الى بيروت وشغل وظيفة استاذ مساعد في الجامعة الامريكية في بيروت ، وتولى تدريس القانون الاداري والدستوري في لبنان وسورية والعراق والمملكة العربية السعودية ومصر ، وشغل ما بين ١٩٥٢ ١٩٥٣ وظيفة في النقطة الرابعة ببيروت ، ثم عين مساعدا لمدير النقطة الرابعة .

وبرغم أن ابكاريوس عمل في حكومة الانتداب وشغل منصبا مرموقا فيها ، غير أنه لم يكن راضيا عن السياسة البريطانية الانتدابية وأعمالها التعسفية في فلسطين ، ولذلك ما أن أحيل على التقاعد ، حتى استلهم ضميره ووضع كتابا قيما باللغة الانكليزية ليقـراه الغربيون بعنـوان Palestine through the fog of propaganda أي « فلسطين من خلال ضباب الدعاية » ، نشره في لندن عام ١٩٤٦ . كما ألف كتابا أثناء عمله في الجامعة الامريكية بعنوان (العربي الحي) لم نقع عليه . وفي الثالث عشر من ايلول ١٩٥٣ توفي ميشيل ابكاريوس بالذبحة القلبية في بيروت ودفن في مقبـرة طائفة اللاتين .(١)

الكتـاب :

يقع في ٢٤٠ صفحة من القطع المتوسط ، ويتضمن مقدمة واثني عشر فصـلا وملاحق . كتب المقدمة الجنرال سير ادوارد سبيرز Spears الذي كان عام ١٩٤٢ ضابط الارتباط بين المصالح البريطانية في سورية ولبنان وبين المندوب العـام الفرنسي . وبعد اعتراف بريطانية باستقلال بلدي المشرق ، عين سبيرز وزيرا مفوضا لدى حكومتيهما ، وظل في منصبه حتى كانون الاول ١٩٤٤ . وقد دافع سبيرز عن الضمانة البريطانية لاستقلال سورية ولبنان التي اعطيت في ٨ حزيران ١٩٤١ ، وترك منصبه بناء على رغبته بعد ثلاث سنين اصطدم خلالها بالمندوب الفرنسي العـام ، ودافع عن وجهات النظر البريطانية (والامريكية) التي تعتبر أن البلدين العربيين يشكلان قاعدة هامة للمجهود الحربي للحلفاء ، ثم تابع عمله في مجلس العموم ، وقام بمساندة البلدين ضد مطامع السياسة الفرنسية آنذاك .

ويبدو أن سبيرز قد تأثر بالحقائق الدامغة التي أوردها ابكاريوس في كتـابه فقد تساءل في مقدمته « كم من البريطانيين يعلمون أن (النبوءة التوراتية) بعـودة اليهود الى فلسطين قد تحققت فعلا بعد عودتهم من سبي بابل ؟ اذ لم يظهر بيـن

اليهود أي نبي، إثر طردهم على يد الرومان بعد ميلاد المسيح ، يعلن انهم سيعودون الى فلسطين ثانية أيضا ! وقال سبيرز ان المواطنين في بريطانية والولايات المتحدة لديهم احساس قوي بالعدالة ويرجون أن يكونوا منصفين ، وهم لا يستطيعون أن يكونوا كذلك اذا استمعوا فقط الى الحكاية من طرف واحد . فليس أصعب من الحكم في موضوع منفرد كموضوع فلسطين ، مادام الصهيونيون يسيطرون على مصادر الدعاية والاعلام في العالم ، ولديهم عدد كبير من ذوي النفوذ يشغلون أعلى المناصب لدعم قضيتهم . في حين أن العرب في الشرق الاوسط ، برغم ان تعدادهم يبلغ الخمسين مليونا ، محرومون كليا من هذه المزايا الاعلامية الضخمة » . ويستطرد سبيرز قائلا :

« ترى هل سمع أحد هنا (بريطانية) أو في الولايات المتحدة بجريدة ذات نفوذ يسيطر عليها العرب ، وهل كان عربي ما عضوا في البرلمان ، أو عضوا في الكونغرس ومجلس الشيوخ ؟ ومع ذلك قيل ان خمسة بالمائة من أعضاء مجلس العموم الحالي هم يهود ، ليسوا بالضرورة صهيونيين ، ومعلوم تماما نفوذ التصويت اليهودي في نيويورك على الحكومة الامريكية .

« وبما أن القضية العربية قاصرة عن طرح نفسها على نحو ما يفعل خصومها ، فقد أصبح لزاما على الجمهور (البريطاني) أن يحاول تفهمها .. ان الشعب البريطاني يرغب في تحقيق العدالة ، ولن يستطيع أن يصل الى قرار عادل الا اذا وقف على حقائق القضية . وبالاضافة الى ذلك ، فلو اقترفنا ظلما ضد العرب بسبب الجهل وخلافه ، فسوف نخسر صداقة العرب ونجلب على أنفسنا عداوة شعوب تقع في صميم خطوط مواصلاتنا الامبراطورية وتسيطر على مواردنا النفطية الحيوية .. ويجب أن يكون مفهوما أنه بصدد القضية الفلسطينية لا يوجد سوى فكر واحد ينتظم الشرق الاوسط من مصر الى الخليج(٢) ، كذلك يجب أن نكون على ثقة بأن العرب يشعرون بأننا أمعنا في ظلمهم والجور عليهم » .

ويروي سبيرز كيف أن بريطانية طلبت مساعدة العرب ضد الترك في الحرب العالمية الاولى ، ووعدتهم الاستقلال والسيادة على بلادهم ، وقد ثبت الوعد في مراسلات مكماهون الحسين ، وكانت مساعدتهم قيّمة لا تقدر بثمن ، وفقا لما صرح به لويد جورج رئيس الوزراء ، واللورد اللنبي القائد العام ، وحين صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ هدّد العرب بوقف القتال ضد الترك « وحالا أفهمناهم أن استيطان اليهود في فلسطين لن يسمح به الا بقدر ما ينطبق مع حرية العرب الاقتصادية والسياسية ، ولكن الصهيونيين ما كانوا يقبلون منذ البداية بأقل من تحويل فلسطين بأكملها الى

دولة يهودية ، يصبح العرب فيها أقلية خاضعة لهم فلا عجب اذا أصيب العرب بخيبة مريرة بعد أن استقبلونا كمحررين من الترك ، وفي فلسطين اتخذت مرارتهم شكل ثورات متزايدة الاتساع ضد الهجرة اليهودية والحكم الانتدابي البريطاني ، فقمعت ثوراتهم بدون شفقة بواسطة الاسلحة البريطانية . لن يقبل العرب أبدا أن يصبحوا أقلية في بلادهم ، واليوم (١٩٤٦) ثمة ٢٠٠ر٠٠٠ر١ عربي و ٦٠٠ر٠٠٠ يهودي في فلسطين ، وهؤلاء المهاجرون الغرباء الذين تدفقوا أساسا من أوربة الوسطى والشرقية ، ليس فيهم شيء من الصفات السامية لليهودي ، فهم أجانب عن فلسطين ، مثلما الروس أجانب عن انكلترة » .

ويخلص سبيرز الى القول بأن « واجب الرجال والنساء في بريطانية محاولة فهم وجهة النظر العربية .. ولهذا السبب ينبغي قراءة كتاب السيد ابكاريوس لانه جهد وجداني لتوضيح مشاعر العرب .. وخلف الكلمات المطبوعة يسمع المرء التساؤل الهامس ـ كيف يمكن لامة حاربت العالم وحدها ليكون لها الحق في ان تكون حرة ، كيف يمكنها أن تحلم بانكار هذه النعمة الحيوية على أمة اخرى ، مهما كانت صغيرة ولا حول لها ؟ ان العرب مازالوا يعتقدون بميثاق الاطلسي ، وبأولئك الذين أعلنوه باعتباره قانونهم . انهم لا يستطيعون أن يصدقوا بأن الذين ينكرون الحرية على الاخرين يمكن أن يتحرروا ، أو أن القانون والنظام سيسود العالم اذا انتهكت القوة القاهرة حقوق أي شعب مؤهل وقادر على حكم نفسه بنفسه ، واذا ما أخضع باغراق بلاده بالغرباء والاجانب ، لان الدول الاقوى ذات الاراضي الواسعة لا ترغب في استقبالهم »(٣) .

أما فصول الكتاب الاثنا عشر فيفند كل منها المزاعم الصهيونية في مختلف نواحي الحياة العامة ، ويكشف عن بطلانها وزيفها ، وتعرض الفصول لاحوال المجتمع في فلسطين ، وديبلوماسية الاتفاقات السرية (مراسلات الحسين مكماهون ، وسايكس بيكو ، ووعد بلفور ..) كما يعالج علاقة الادارة العسكرية البريطانية مع اللجنة الصهيونية ، وبداية الادارة المدنية والانتداب ، ويشرح عملية تطبيق الانتداب وسياسة الاراضي والزراعة والصناعة ، ويتحدث عن المساهمة النسبية في الدخل العام ، والهجرة ، ويختتم الكتاب بفصلين عن الوضع الراهن ، وعن لجنة التحقيق الانكلو أمريكية (١٩٤٦) .

وترجع أهمية الكتاب الى أنه يلقي الضوء على المساعي الصهيونية ـ البريطانية الحثيثة لتهويد مرافق الحياة العربية العامة في فلسطين ، بايراد معلومات دقيقة جديدة ، قد لا يعرفها الا موظف كبير مثله في الادارة الانتدابية . ان ابكاريوس بحكم

منصبه كسكرتير للادارة المالية في حكومة فلسطين كان يمكنه ان يطلع عن كثب على تقارير اللجان العديدة التي حضرت الى فلسطين للتحقيق في أسباب ثوراتها وكان يضع يده على سجلات الادارة الانتدابية فيما يتصل بالواردات والمصروفات العامة للبلاد ، ويعرف كل شاردة وواردة من نفقات ومخصصات الانتداب في شتى وجوه الحياة الفلسطينية العامة . وبفضل تفاصيل معلوماته الموثقة بالارقام الدقيقة والتحليلات الصائبة ، يعدّ كتاب ابكاريوس من أهم ما صدر باللغات الاجنبية موضوعية ونزاهة ، عن الحقائق الحياتية العربية التي كان يتحرّق لتهويدها الصهيونية والبريطانيون ، بعيدا عن روح الانتداب ونصه . فالكتاب بأسلوبه الهادىء يدحض بقوة المزاعم الصهيونية والبريطانية في فلسطين ، ويبدّد ضباب الدعاية الذي نسجته من الاوهام والاضاليل . لقد اعترف ابكاريوس بما حققته الدعاية الصهيونية من نجاح في ترويج التزييف والتنكر للحقائق الثابتة التي قامت وتقوم على أرض فلسطين . ولقد راعه ذلك وحزّ في نفسه ، ولقد أشار الى ذلك في بعض ما سطره بالعربية حين قال : « أريق فيض من المداد هدرا في تمجيد ما أنجزه اليهود في فلسطين . وان تيار الدعاية الذي شرع فيه حينما اصبح قيام الوطن القومي اليهودي محتملا ، قد كسب زخما من كل انجاز يدعي به ، حتى أصبح مثل النهر الواعي لقوته ، قد حمل معه الرأي العام والعطف ، غير عابىء بالحقائق الواقعية للقضية . لقد جرت بضع محاولات قام بها العرب وأصدقاؤهم لتنوير الرأي العام بسيل من الحقائق في الصحف اليومية الكبرى حتى العام الماضي ، ولكن دون جدوى ، وان القليل الذي تسرّب من وقت الى اخر ، كان متقطعا بحيث أنه لم يؤثر قطعا حتى على صفحة التيار الجيّاش للدعاية الصهيونية »(٤) .

يقدّم المؤلف لكل فصل من كتابه بمقدمة قصيرة توضح أحوال فلسطين في العهد العثماني لترسم لوحة مقارنة تبين ما كانت عليه أحوالها وما صارت اليه تحت الادارة الانتدابية ، ثم يشرع بتقصي أهم جوانب الفصل وشرح ما قامت به الادارة الانتدابية لتهويد فلسطين وتنفيذ رغائب الاستيطان الصهيوني ، كل ذلك بأسلوب سهل بعيد عن الانفعال ، ليخلص في النهاية الى أن دعاوى الصهيونية البرّاقة في ظاهرها ، ليست الا من قبيل خداع النظر الناجم عن نقص المعلومات الذي يترتب عليه فساد الحكم وسوء التقدير . وسنعرض في موضوعنا لما اورده ابكاريوس فقط حول عملية تطبيق الانتداب في مرافق الحياة العامة المتصلة بالامن العام والتربية والاشغال العامة .

* * *

ظلت الحكومات البريطانية المتعاقبة ما بين ١٩٢٠ و ١٩٣٧ تدعي بأن التزاماتها بموجب صك الانتداب الفلسطيني هي التزامات غير متناقضة ويمكن التوفيق بينها، الى ان ارسلت لجنة بيل الملكية الى فلسطين أواخر عام ١٩٣٦، فاعترفت في تقريرها الذي صدر في تموز ١٩٣٧ باستحالة التوفيق بين الالتزامين الصادرين من بريطانية الى العرب واليهود لتناقضهما، وذلك بعد ان عملت على تصعيد هجرة اليهود وزيادة نسبة الاراضي التي يملكونها، اكي تتعقد المشكلة الفلسطينية ويتعذر حلها(٥). ومع مرور الزمن على الجهود الانتدابية في تنمية الوطن القومي اليهودي، اصبحت عداوة العرب له أكثر ومرارتهم أشد. ولا عجب، فكل اجراء تتخذه تلك الجهود كان يضر المصالح العربية بنفس الدرجة التي كان ينفع المصالح اليهودية. ولقد استغرق الامر سبعة عشر عاما من الاضطرابات والثورات الدامية لتتحقق الحكومة البريطانية من المسلّمة الاولية القائلةبأن الانتداب غير قابل للتطبيق في فلسطين، والعجب هو التصور بأنه مقترح عملي، والظن بأن العرب عاجلا أم آجلا سيتخلون عن حقوقهم الوطنية، وذلك بفضل الوهم الذي أشاعه أدعياء الوطن القومي اليهودي. وحين ضغط اعضاء الوفد العربي في جنيف على بلفور، تبرع باجابة صريحة وقال بأن الوطن القومي كان تجربة! لقد كان يعلم مدى الصعوبات التي سوف يلقاها العرب نتيجة فرض المخططات الصهيونية عليهم، ويشعر كم سيشجبها العرب ويستنكرونها بكل المرارة، وكم يستحيل تطبيقها بسلام(٦).

تجربة! في الحق ليس لها نظير في التاريخ البشري المسجل، ولكن الطريق نحو التقدم محفوف بالتجارب، وبالتجربة والخطأ نصل اخيرا الى كشف ما. ولكن نادرا ما نأخذ أبناء جنسنا البشري كموضوع للتجربة. القردة والارانب والحيوانات الدنيا هي ما يختار لهذا الغرض، وفقط بضعة منها في المرة الواحدة. ولكن هذه التجربة ـ تطعيم الصهيونية على الارومة العربية في فلسطين تشمل اليوم تضحية ما يزيد على المليون نسمة، سوف يفقدون هويتهم القومية في أرضهم اذا قيض للتجربة أن تنجح! ومع ذلك فتلك (التجربة) التي خطط لها اليهود، قد لقيت تبريك عصبة الامم التي لم تدرك في ذهولها أنها بحسب بنود ميثاقها، يجب على الادارة الانتدابية أن تدير البلاد من أجل نمو ورفاه سكانها، ٩١٪ منهم عرب، باعتبارها وديعة مقدسة للحضارة. ومجلس العصبة كان يبدو راضيا عن التقارير السنوية التي تقدمها دولة الانتداب من حيث أن البلد الموكول لانتدابها كان يدار وفقا لمبادىء العصبة!»(٧).

★ ★ ★

وينتقل ابكاريوس بعد هذا التقديم الى عملية تطبيق الانتـداب البريطاني في فلسطين ، فيعرض بالنقد والتمحيص لعدد من مرافق الحيـاة العربية هنـاك ، ويدحض الدعاوى الصهيونية بشأن المنافع والفوائد التي جناها العرب مـن جراء الهجرة والاستيطان الصهيونيين والمشاريع اليهودية المختلفة ، كما يمضي في تقويم ما حققته الادارة الانتدابية من أجل (تنمية) هذه المرافق و (الارتقاء) بها ، ويوضح ان نتائجها كانت دائما في خدمة الاهداف الصهيونية الرامية الى تهويد فلسطين . والمرافق التي سنعرض لها هي : الامن العام ، التربية ، الاشغال العامة ، الحكـم المحلي . أما المرافق الاخرى مثل الصحة والهجرة وسياسة الاراضي ، والزراعة ، والصناعة ، والمساهمة النسبية في الدخل ، وعلاقة الهجرة بالرفاه المزعوم ، فلـن يتسع مجال البحث لعرضها على أهميتها ، اذ يحتاج كل منها لبحث مستقل .

الامـن العـام :

يبدأ إبكاريوس فيشرح ايجازا تنظيم الشرطة والدرك ابان الحكم العثمانـي : كانت قوة الدرك في عموم فلسطين تتألف من خمس وحدات ، تشمل ضابطين وثلاثة عشر صف ضابط و ٧٠ رجلا . ومن هذه الوحدات الخمس كان ثلاث منها خيالـة واثنتان مشاة . ثمة وحدة خيالة ترابط في مدينة القدس ، وواحدة في يافا ، وثالثة موزعة بين غزة والخليل وبئر السبع . أما وحدتا المشاة ، فكانت احداهما ترابط في القدس ، وينفصل عنها للخدمة في مدينة الخليل ١٠ ــ ١٥ رجلا ، والاخرون كانوا يخدمون في مناطق يافا وغزة وبئر السبع(٨) .

أما قوة الشرطة فكانت تتألف من ٤٥ نفرا : ١٥ في القدس ، ١٠ في غـزة ، ١٠ في يافا ، ١٠ في الخليل وبئر السبع وقد بلغت نفقات هذه القوة حوالي ٢٨ الف ليرة تركية سنويا ، وهي تعادل ٢٥ الف جنيه استرليني .

ويتضح ان فلسطين اليوم (١٩٤٦) ومساحتها تعـادل ثلاثة أمثال مسـاحـة سنجق القدس العثماني (باستثناء النقب التي كانت وظلت غير مأهولة عمليا) مع الاخذ بعين الاعتبار المناطق الشمالية الاكثر سكانا ، لا تحتاج لاكثر من أربعة أمثال قوة الشرطة في العهد العثماني ، بل انها تزيد عن حاجة عموم فلسطين بحدودها الدولية الحاضرة . وكانت القوة الكبيرة نسبيا ترابط في القدس حيث وجودها مرغوب فيها للحفاظ على مهابة المتصرف العثماني في المدينة الرئيسية بالسنجق . والمدينة الرئيسية للمناطق الشمالية كانت بيروت ، والرقعة الممتدة مـن عكا الـى نابلس والمشتملة على حيفا ، كانت بالقياس الى بيروت ، لها نفس الصفة الريفية لمناطـق

الضاحية المعتمدة على القدس . ولكن بعد احتلال فلسطين مباشرة ، شكلت الادارة العسكرية نواة لقوة الشرطة ، بالاعتماد أساسا على جيش الاحتلال ، للحفاظ على الامن الداخلي . وحالما تسلمت الادارة المدنية سلطاتها ، اصبح من الضروري زيادة عدد أفراد قوة الشرطة تمهيدا لخفض القوات العسكرية التي كانت تكلف دافع الضرائب البريطاني حوالي ثلاثة ملايين جنيه سنويا ،ولم تكن أحوال الخدمة في سلك الشرطة جذابة ، ففي عام ١٩٢١ استقال ثلث أفراد قوة الشرطة بسبب ضآلة الرواتب .

وبعد تحسين احوال الخدمة عام ١٩٢٢ ، اتضح انه يمكن زيادة القوة الى ٧٨ ضابطا و ١١٥٩ نفرا من رتب اخرى . وبالاضافة الى ذلك ، تشكلت قوة درك مؤلفة من قسم بريطاني تعداده ٣٨ ضابطا و ٧٢٤ من مختلف الرتب ، وقسم فلسطيني مؤلف من ٥٥٠ دركيا بين خيالة ومشاة . وكان دافع الضرائب البريطاني يدفع نفقات القسم البريطاني ، ولكن بسبب الانسحاب التدريجي للحاميات العسكرية ، فان النفقات التي دعي لتحملها عام ١٩٢٣ كانت نصف النفقات السابقة .

تمت هذه الاجراءات تحت اشراف السير هربرت صموئيل ، وشهدت فلسطين فترة سلام قصيرة ، أعطت انطباعا زائفا بأن العداء لسياسة الوطن القومي كان يتناقص . ولم تكن الوكالة اليهودية راضية عن التقدم الذي تحقق باقامة الوطن القومي وكانت تطلب تصعيد (سرعة العزف) مع علمها بأن مثل هذا التصعيد يمكن أن يعكس بسهولة ما تنطوي عليه سياسة الوطن القومي من بغض مستتر نحو العرب . فقد جهر الدكتور ايدر(٩) صراحة برأيه أمام لجنة هايكرافت للتحقيق ، وذكر أن شرط استتباب السلام الدائم في فلسطين انما يتحقق في تسليح اليهود الصهيونيين ، وطلب أن يوضع اليهود على قدم الاستعداد للدفاع عن انفسهم في حالة وقوع هجمات عربية على مستوطناتهم ، وأقرّت الادارة الانتدابية هذا الطلب ، ولكن كاجراء احتياطي ، تقرّر تزويد المستوطنات بترسانات سلاح مختومة بخاتم الشرطة ، ويمكن استعمالها في الدفاع عن النفس بكسر الختم وقت الطوارىء . ومما يثير الدهشة ان تترك السلطات موضوع تقرير حالة الطوارىء بيد المستوطنين اليهود ، الذين طالبوا بعد الحصول على هذا الامتياز ، بأن تزودهم السلطات الانتدابية بالسلاح والذخيرة من الصناديق الحكومية العامة .

وبعد عام واحد حاولت الحكومة الغاء الترسانات لانها شعرت ان وجود الترسانات كان اقرارا بعجزها عن الحفاظ على السلام في البلاد ، أو لانها عكست عجزها ضد الاصرار اليهودي ، وكلا السببين كان كافيا لنسف سلطتها ومكانتها . وجادلت الحكومة بأن الطرق الامنية قد بنيت لضمان وصول القوات المسلحة بسهولة

وسرعة في حالة الطوارىء ، وان البلاد يسودها الاستقرار والسلام بحيث يمكن استبعاد تجدد اضطرابات عام ١٩٢١ . وتوصلت المعارضة اليهودية الى تسوية مع السلطات ، وتقرر الغاء ترسانات السلاح تدريجيا خلال سنتين . وكان على الحكومة في غضون ذلك أن تتابع بناء الطرق الامنية . وبينما نص القرار على ان يشهد عام ١٩٢٦ نهاية ترسانات السلاح ، فقد اتضح عندما طرح الامر امام لجنة شو عام ١٩٢٩ انها مازالت قائمة في المستوطنات اليهودية ، وان واحدة منها على الاقل قد استعملها اليهود خلال ثورة ١٩٢٩ .

وفي عام ١٩٢٦ وعلى اثر تشكيل قوة حدود شرقي الاردن ، الغيت قوة الدرك بقسميها ، وتشكلت قوة الشرطة من ٢٠٠ من البريطانيين و ٣٠٠ من الدرك الفلسطيني بحيث بلغت قوتها ١٢٥ ضابطا و ١٦٢٧ نفرا من مختلف الرتب ، وبلغت نفقاتها ٣٠٦ آلاف جنيه فلسطيني . وتزايدت قوة الشرطة ما بين ١٩٢٦ و ١٩٢٩ ، وبعد ثورة ١٩٢٩ دعمت بفريق من الشرطة البريطانية ، وارتفعت نفقاتها الى ٤٧٦ الف جنيه فلسطيني عام ١٩٣٠ . واجتمعت لجنة حكومية للنظر في حماية المستوطنات اليهودية ، ورات وجوب سحب الترسانات بشرط ان تصدر الحكومة بسخاءتراخيص حيازة البنادق للمستوطنين اليهود . وكانت مزية توصيات اللجنة بهذا الشأن انها حررت الحكومة من الانفاق على تسليح المستوطنات ، وهي مزية ذات دلالة حين نتذكر أن تسليح المستوطنات على حساب عموم السكان كان يعني في الحقيقةمساهمة العرب في تسليح العنصر اليهودي من السكان ضدهم . ولكن لاسباب يسهل استنتاجها ، لم تنفذ هذه التوصيات الا بصورة جزئية . وحين وضع السير ربرت دوبغن Dowbiggin تقريرا عن حالة الامن في البلاد ، كانت الترسانات مازالت قائمة ، ولقد أوصى بزيادتها وبدعم قوة الشرطة بفريق من الشرطةالبريطانية يقدر ب (٦٥٠) شرطيا . وفي نهاية عام ١٩٣٥ وصلت قوة الشرطة الى ١٨٠ ضابطا و ٣١٣٢ من مختلف الرتب ، وبلغت نفقاتها ٥٢٧ الف جنيه فلسطيني ، اضافة الى ضابط واحد و ١٢٩ شرطيا جندوا خصيصا لحماية المستوطنات اليهودية .

ولكن الامر لا يقتصر على ترسانات السلاح بل تعداه الى تسليح اليهود وتهريبهم السلاح الى فلسطين . ذلك انه الى جانب الترسانات الموضوعة تحت تصرف اليهود، وسخاء الحكومة في اصدار تراخيص لهم بحمل البنادق والمسدسات ، فقد كان اليهود في غضون ذلك يتسلحون سرا . فقد اكتشفت ارسالية سلاح وذخيرة عام ١٩٣٠ وصودرت من قبل رجال الجمارك وكانت قد اخفيت في ثلاثة صناديق مستوردة من فيينا لحساب شركة يهودية . واكتشفت ارسالية اخرى عام ١٩٣٥ مصادفة في يافا ، وتضمنت ٢٥٤ مسدسا من نوع موزر مع اعقاب بنادق ، و ٩٠

مسدسا و ٥٠٠ حربة و ٤٠٠ الف طلقة من الذخيرة ، اخفيت كلها في ٥٩ برميل اسمنت مستورد لحساب تاجر يهودي في تل ابيب ، وهذه الارسالية على الارجح ، هي آخر ارساليات اربع من هذا النوع (١٠) .

ولم يعط تفسير رسمي لكيفية الكشف عن هذه الارسالية ، ولكن الصحافة المحلية ذكرت أن برميلا سقط بعد تحميله على شاحنة وتحطم وظهر محتواه للعيان ، وذلك بعد تخليصه من الجمارك . ولا بد ان الشرطة قد علمت من تحرياتها بالارساليات الثلاث السابقة ، ولكن لم تتم مصادرتها ولا لوحق أصحاب الارسالية الرابعة أو حركت دعوى قضائية ضدهم ، برغم أن صاحبها لم يكن شخصا وهميا . ونددت الصحافة العربية بالحكومة واليهود ، وذهبت صيحتها في واد . وجرت محاولات لجمع السلاح غير المرخص من العرب ، في حين كان اليهود يستوردون السلاح بطريقة محظورة دون أن يجازفوا بأكثر من مصادرة الحكومة له في حال اكتشافه صدفة . ولكن هذه الحملة الصحفية العربية لم تسفر عن أية نتيجة ايجابية بدليل ما ورد في تقرير لجنة بيل الملكية من ان أعضاءها « ابلغوا بصورة رقمية كاملة بأن اليهود قادرون على حشد ١٠ آلاف مقاتل مدرب ومسلح في الجبهة ، مع رديف مؤلف من ٤٠ الفا . كان ذلك عام ١٩٣٧ ، فهل تلام الصحافة العربية على أنها وجهت النقد المرير الى الحكومة واليهود كليهما ؟ ! وخلال الحرب العالمية الثانية كشفت المحاكم العسكرية عن حالة أخرى ، حين عمل بعض اليهود للحصول على أسلحة وذخيرة من الجيش البريطاني بصورة محظورة ، وأسفرت الاجراءات المتخذة ضدهم عن حكمين بالسجن(١١) .

وفي عام ١٩٣٦ وعلى اثر تفاقم الاضطراب في البلاد ، زادت الادارة الانتدابية قوة الشرطة ورفعت مخصصاتها لتبلغ ٧٤٤ الف جنيه فلسطيني . وقد تمت الموافقة مؤخرا على هذا الرقم باعتباره يمثل حصة الادارة الانتدابية المترتبة عليها من أجل الحفاظ على الامن الداخلي في فلسطين . والزيادة الطارئة على هذا الرقم من عام الى عام كانت تدفعها الحكومة البريطانية على أساس ان انفاق هذه المخصصات الاستثنائية على قوة الشرطة كان نتيجة السياسة البريطانية التي تنتهجها في فلسطين . والحقيقة ان مختلف اللجان . التي حضرت للتحقيق في أسباب الثورات والاضطرابات توصلت الى نفس النتيجة وهي أن السبب الكامن وراءها واحد لا يتغير : سياسة الوطن القومي اليهودي . وبرغم أن وزارة المالية البريطانية ادركت منذ البداية أن هذه السياسة المتبعة لابد ان تصبح باهظة التكاليف على المدى البعيد ، فانها لم تجد مفرا منها . وفي عام ١٩٤٣ كانت مساهمة الحكومة البريطانية في الانفاق على الشرطة قد بلغت المليونين من الجنيهات ، وقدرت نفقات الشرطة الكاملة عام ١٩٤٥ بمبلغ

٣٫٣٥٨٫٠٠٠ جنيه فلسطيني وقع عبئها الثقيل على دخل البلد . ليس هذا فحسب، فقد شكلت أيضا قوة شرطة متنقلة لتعالج بسرعة الاضطرابات الطارئة ، ويبلغ تعداد هذه الوحدة المتنقلة الميكانيكية والمجهزة جيدا الفي رجل ، وتصل نفقاتها الى ١٫١٥٤٫٠٠٠ جنيه فلسطيني ، وهكذا يصل مجموع نفقات الامن الداخلي الى اكثر بقليل من ٤١/٢ مليون جنيه فلسطيني وهو يعادل ٣٨٫٧٪ من مجموع النفقـــات العادية للادارة الانتدابية البالغة ١١٫٦٢٠٫٠٠٠ جنيه فلسطيني للعام ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦(١٢) . واذا قارنا هذا المبلغ الضخم بالمبلغ الزهيد جدا الذي كان يشكل نفقات قوة الشرطـة قبيل الاحتلال البريطاني لفلسطين مباشرة ، وهو يعادل ٢٥ الف جنيه استرليني ، ولو ضربنا هذا المبلغ بأربعة لحصلنا على ما يقارب مجموع نفقات الشرطة في كامـل فلسطين آنذاك ، لو فعلنا ذلك لادركنا كم كانت باهظة التكاليف سياسة الوطـن القومي ، وكم كانت مجحفة بحقوق العرب في تراب وطنهم وخيرات بلدهم .

ويركز ابكاريوس على نقطة هامة أخرى تنتقص من جدوى هذه الاجراءات الامنية التي أكره عرب فلسطين على المساهمة في نفقاتها الضخمة ، وذلك حين يوجه الى قوة الشرطة المذكورة انتقادا واحدا من الانتقادات الموجهة اليها ، فقد « ذكر في شهادة أمام لجنة بيل الملكية أنه في الاوقات العاديـــة ، كان يمكـن الاعتمــاد على افـــراد قوة الشرطة حتى في مطاردة المجرمين والقتال بالايدي . ولكن في أوقــات الاضطراب الناشب بين العرب واليهود ، فــان ولاء أفــراد الشرطة لشعبهـم كــان يتحكـم بمسلكهم . ان للشعب حقا طبيعيا في ان ينعم بالحماية ضمانا لاستقراره في عملـه الذي يكسب منه معاشه ، وأول واجب للحكومة المنظمة هو تأمين الحماية له . أما التحزب في صفوف رجال الامن الموكول اليهم هذا الواجب ، فأمر لا يمكن الدفــاع عنه ، أو السكوت عليه . ولكن الظروف والاحوال التي وضعت فيها فلسطين لا يمكن أن تسود في أي مكان آخر على الارض . وان مستوى الولاء لابد أن يختل وينحرف بسبب الاوضاع الشاذة التي أوجدتها سياسة متحيزة تنتقل بموجبها البلاد علـى الدوام من الايدي العربية الى الايدي اليهودية . ان توقع الولاء من الشرطي العربي أو اليهودي حين يكون الامر متصلا بقمع الاماني القومية لاخوة هذا او ذاك ، يـدل على تقصير مفجع في ادراك طبيعة القوى الفاعلة في البلد ، كما يدل على توقع لا مبرر له بأن الانضباط المسلكي سيصنع رجال الشرطة المثاليين الذين لا يلقون بالا الى نداءات قوميتهم الناشئة . فليس يمكن للعربي او اليهودي أن ينظر الى مواطنه الذي يعمل على تحقيق تطلعاته القومية ، باعتباره شيطانا مريدا . وهذه النظرة لا بد أن تؤثر على أدائه عمله . وبرغم التأكيد بأن قوة الشرطة لا يمكن الاعتماد عليها في الظروف المضطربة ، فقد سلحت الادارة الانتدابية ودربت ثلاثة آلاف يهودي عام ٩٣٦ باعتبارهم شرطة تكميلية ، وتحملت الادارة الانتدابية والوكالة اليهودية نفقاتهم على قـدم

المساواة(١٣) . وجميع الناس كانوا يعرفون مصدر المخصصات المالية التي يتلقاها هؤلاء كما يعرفون أن ولاءهم للوكالة اليهودية غير مشكوك فيه . ولذا فالوكالةاليهودية لم تطلب من لجنة بيل الاحتفاظ بهذه القوة التكميلية فقط ، وانما ايضا زيادة عدد رجال الشرطة اليهود في قوة الشرطة النظامية ، لان الحكومة ــ في نظر الوكالة اليهودية ــ قد فشلت في أداء واجبها الرئيسي نحو الوطن القومي !!

التربيــة :

ذكر ابكاريوس أن السلطنة العثمانية لم تول ميدان التربية والتعليم اهتمامها ولا سيما في سنجق القدس ، ولكن بعد اعادة الحكم الدستوري عام ١٩٠٨ أولت السلطنة عنايتها للتسهيلات التربوية ، اما في القرى فكانت الجهودالتربويةالتعليمية شبه معدومة . والحق ان ثمة عوامل متعددة كانت تحول دون مباشرة السلطنة مشروعا بعيدالمدى لنشر التعليم في جميع ممالكها، فالوضع القلق الناجم عن السلطةالمزدوجة لجمع وجباية الضرائب ، والموزعة بين الادارة الاجنبية للدين العثماني العام ، وبين الحكومة العثمانية التي عجزت عن فرض ضرائب جديدة ، والجهود المبذولة لمعالجة هذا الوضع قصرت عن تحقيق هدفها . ولكن فرضت ضريبة خاصة من أجل تعليم السكان ، وقعت على كاهل المزارعين اضافة الى ضريبة العشر ، كما وقعت على كاهل سكان المدن ، وكان القصد من هذه الضريبة أيضا معالجة مشكلة الامية في المناطق القاصية من السلطنة . وكان افتتاح المدارس يجري حتى ما بعد قيام الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ ، وافتتحت المدارس في فلسطين وفي المناطق الاخرى التي كان العرب يشكلون غالبية سكانها ، على أساس التعليم باللغة العربية والتركية . وقد استهدف هذا الاجراء ، مصالحة الرأي العام العربي في وقت بدأت فيه الحركة القومية العربية تشق طريقها الى الاذهان ...(١٤) .

ويورد ابكاريوس تقدير الاستاذ احمد سامح الخالدي لعدد من هم في سن الدراسة عام ١٩١١ بفلسطين ، بحوالي ٣٨٠٥٣ صبيا و ٣٥٥٨٤ بنتا . اما الذين كانوا يحضرون المدارس الحكومية ، فقد بلغ عددهم ٦١٠٤ صبيان و ١٥٠٤ بنات في حين أن المدارس الخاصة والاجنبية تكفلت بتعليم ٦٩٧٤ صبيا و ٢٦٧٣ بنتا ، ولكن بقي ٢٥ ألف صبي و ٣١٫٤٠٠ بنت محرومين من اية فرصة لتعلم الابجدية !

والحق انه كان يمكن للادارة الانتدابية أن تنطلق من القاعدة التي أرساها الاتراك سابقا ، ولكنها اختارت أن لا تلزم نفسها بدعم المؤسسات التعليميةفي فلسطين ، وقد سهل عملها كثيرا موقف اليهود من التعليم العام . فمنذ البدء أعلنوا أنهم

يريدون أن يتولوا بأنفسهم الاشراف على مدارسهم الخاصة مع اقل قدر ممكن من التدخل الحكومي . وكانوا في الواقع قد خططوا ليتضمن صك الانتداب مثل ذلك . فالى جانب المادة (٢٢) التي كفلت لاعتراف باللغة العبرية كواحدة من اللغات الرسمية الثلاث بفلسطين ، نصّت المادة (١٥) على حق كل طائفة بالحفاظ على مدارسها الخاصة لتعليم أبنائها بلغتها ... وكان من الواضح أن اليهود الصهيونيين ارادوا أن يديروا مدارسهم على أسس قومية لصنع رجال ونساء يليقون بالدولة التي يودون انشاءها في الارض المقدسة . فالمدارس المختلطة التي تضم العرب واليهود سوف تميل ، بنظرهم ، الى التعاون بين العرب واليهود في النهاية ، وسوف تحرم الوطن القومي من الصبغة اليهودية المميزة ، وعليه فيجب عدم الاخذ بالمدارس المختلطة .

وكان لدى اليهود قبل الحرب العالمية الاولى حوالي ٦٠ مدرسة في فلسطين ، وقد سيطرت المنظمات اليهودية على هذه المدارس او ما تبقى منها ، ووجهتها وفق خطوط يهودية قومية . ومع مرور الوقت جرى تحديثها واقامة مدارس جديدة . والمدرسة الزراعية التي أسسها الاليانس الاسرائيلي قرب حيفا على حوالي ٢٠٠٠ دونم منحها سلطان تركيا عام ١٨٧٠الى الاليانس من أجل انشاء مدرسة للطبقات الفقيرة من السكان ، تستوعب العرب واليهود طبعا ، قد جرى تحويلها الى مدرسة يهودية صرفة ، واللغة الفرنسية التي كانت لغة التعليم في المدرسة حلت محلها اللغة العبرية . وفي حين كان العرب واليهود في السنوات السابقة يحضرون دروس المدرسة على قدم المساواة ، فانه لا يسمح للطالب العربي اليوم (١٩٤٦) بدخولها ، بحجة انه لا يعرف اللغة العبرية معرفة كافية .

ونتيجة لذلك أخذ اليهود على عاتقهم العناية بشؤون التعليم ، والحكومة لم تشرف عليه الا اشرافا صوريا ، يكلف به مفتشون من اليهود بتوجيه القسم التربوي في الادارة الانتدابية .

وكانت المدارس اليهودية تتلقى منحة سنوية محسوبة على ما تنفقه الحكومة على تعليم طلبة من اليهود وصلوا الى سن التعليم ، وهي نفس النسبة عن عدد الطلبة العرب في المدارس الحكومية الذين هم في سن الدراسة ، وعلى ذلك تلقت المدارس اليهودية عام ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ مبلغ ١٠٠ ألف جنيه فلسطيني من الصناديق العامة ، كما تلقت نسبة مدروسة بعناية من النفقات الحكومية لبناء مدارس جديدة .

وينتقل ابكاريوس(١٥) الى شرح أحوال التربية والتعليم على الجانب العربي ، فيذكر أن نفقات الادارة الانتدابية في هذا الميدان التربوي العربي بلغت ٤٩٠ ألف

جنيه فلسطيني للعام ١٩٤٣ ــ ١٩٤٤ وفقا لتقرير القسم التربوي المنشور . واخر الارقام المتوفرة تدل على أن الحكومة لديها ١٨٠٠ معلم في حين وصل عدد الطلبة الذين حضروا الى المدارس في المدن والقرى الى ١٤١ ٦٣ منهم ٤٩٣٧٥ صبيا و ١٣٧٦٦ بنتا. وكان يحضر الى المدارس غير الحكومية حوالي ٤٠٧٢٣ طالبا ، منهم ٢٤٧٩١ صبيا و ١٥٩٣٢ بنتا . وقدّر عدد الذين هم في سن المدرسة من العرب بـ ١٥٧٫٧٠٠ صبي و ١٤٤٢٥٠ بنتا . وهكذا فان حضور الصبيان الى المدرسة يمثل نسبة ٤٧٪ ممن هم في سن المدرسة في البلاد كلها . ويمثل حضور البنات نسبة ٢١٪ ممن هن في سن المدرسة . وتتضح أهمية هذه الارقام حين نأخذ العرب الذين هم في سن المدرسة ككل ، ومجموع عدد الصبيان والبنات الذين حضروا المدرسة ، فمن المقرر أن ٣٤٪ ممن هم في سن المدرسة لديهم فرصة لتلقي نوع من التعليم ، و ٦٦٪ ظلوا أميين . ومن أصل نسبة ٣٤٪ حضر ٢١٪ فقط المدارس الرسمية . وواضح من هذه الارقام أنه يوجد مجال للتوسع في استيعاب عدد أكبر من العرب في المدارس ، ولكن يرى ابكاريوس أن من غير الممكن تأمين المخصصات المالية والمعلمين بالسرعة الكافية لسد الثغرة الموجودة منذ عام ١٩١٨ ، وتلبية احتياجات السكان الذين يتزايدون باستمرار(١٦) .

وبرغم أن الحكومة أقامت ٣٠٤ مدارس في القرى ، في مبان اعتمدت أساسا على جهود القرويين ، حيث يتلقى ٧٠٪ ممن هم في سن المدرسة التعليم الاولي ، فانه يوجد ١٢٢ قرية لم يستطع سكانها تهيئة المباني المدرسية . كما يوجد ٤٠٠ قرية صغيرة قيل ان قلة سكانها لا تتيح تأسيس مدارس حكومية فيها . ومن مجموع ٢٠٨١٥٠ صبيا وبنتا ، قبلت المدارس ٢١٪ منهم ، وبقي ٧٩٪ منهم بدون تعليم . أما نسبة قبول بنات القرى في المدارس ، فلم ترتفع عن ٦٪ من مجموع البنات في سن الدراسة .

ويلاحظ ابكاريوس بحق أن مشكلة اجتماعية خطيرة لابد ان تنجم عن ضآلة نسبة التعليم بين البنات ، وعن عدم نشر التعليم بين الصبيان والبنات بنسب متوازية . لقد اهمل تعليم البنات بحيث يمكن القول بأنه غير موجود . وما لم تأخذ أمهات المستقبل بأسباب التعليم على نحو لائق ، فلن يوجد سوى أمل ضئيل في رفع مستوى الجيل القادم . فلا يكفي أن نلحق ٣٠٪ من صبيان القرية بالمدارس ، فاذا أريد الحفاظ على بنية اجتماعية سليمة للحياة في القرية، فلا بد أن يمضي تعليم الصبيان والبنات متوازيا ، وعلى الشبان نصف المتعلمين أن يختاروا زوجاتهم من نفس مستواهم على الاقل ، ضمن القرية ، اذا أرادوا أن يعيشوا حياة هانئة مجدية . فنادرا ما يقبل أهالي المدن أن يزوجوا بناتهم من قرويين بعيدا عنهم ، ونادرا ما يتقبل الشبان

انصاف المتعلمين بنات القرية الاميات كزوجات لهم . وهذه الحالة تستدعي المعالجة السريعة اذا أريد تجنب الامراض الاجتماعية(١٧) .

أما تسهيلات التعليم التي تقدمها الادارة الانتدابية فهي تسهيلات غير ملائمة ولا كافية . ويظهر ذلك بجلاء من عدد المتقدمين للانتساب الى المدارس ، والمشار اليهم باسم (المؤجلين) . ففي عام ١٩٤٣ كان ثمة ٥١١٨ مؤجلا من أصل ١٠٥٩٤ المتقدمين الى مدارس المدن ، وهذا يعني ان جميع المتقدمين كانوا لائقين أي مستوفين شروط الحكومة ، وأهمها شرط السن . فاذا كان المتقدم تنقص سنه أو تزيد عن السن المحددة ، فليس أية فرصة لقبوله في المدرسة . وفي العام التالي لابد أن يتجاوز جميع المتقدمين (المؤجلين) السن المحددة ، فاذا تقدموا بأوراقهم الى المدرسة ثانية فسوف يُرفضون . وقد ترتب على ذلك أن ٤٨٪ من المتقدمين لدخول المدارس الحكومية عام ١٩٤٣ ، قد رفضت طلباتهم وحرموا من أي تعليم ، ما لم يكن أقرباؤهم قادرين على رفع المبلغ الذي يدفعونه كقسط للمدرسة الخاصة ، مهما بلغت تضحياتهم . وفي القرى مثل هذا الامر يكاد أن يكون مستحيلا ، فالقرويون القادرون على تزويد أولادهم بالتعليم في طول البلاد وعرضها ، يمكن أن يعدوا على أصابع اليد الواحدة . وتظهر الارقام التي وردت في التقرير السنوي للقسم التربوي بالادارة الانتدابية انه كان يوجد ١٣٦٦١ متقدما الى دخول مدارس القرية ، منهم ٣٩٦١ مؤجلا . ولكن يلاحظ قارىء التقرير المذكور أن عدد المتقدمين لا يشمل جميع أولئك الذين كان يمكن أن يتقدموا ، فقد أحجم الكثيرون عن التقديم « لعدم وجود مدارس في قريتهم أو لانهم لا يرون فرصة لقبولهم فيها »(١٨) .

وخلال السنوات القليلة الماضية فرضت ضريبة محلية على التعليم المحلي من جانب بعض البلديات ومجالس القرى للمساعدة في تأمين تعليم الاولاد في المنطقة المعنية . وهذا ، كما يقول ابكاريوس ، بحد ذاته أبلغ تعبير عن تقدير الشعب لقيمة التعليم . وفرضت ضريبة في القدس لاول مرة للعام ١٩٤٤ ــ ١٩٤٥ برغم أن هذه السلطة المحلية لا ترعى المدارس . وقدّر أن حاصلات الضريبة بلغت ١٢ ألف جنيه فلسطيني ، وقسّمت المجموعات بين العرب واليهود بنسبة مساهمة كل منهم . وتشكلت لجنتان بلديتان لتقديم النصح حول كيفية صرف المال المجموع في حال عدم وجود مدارس تحت السلطة المباشرة للمجلس البلدي . واقترحت اللجنة العربية « افتتاح صفوف جديدة للاولاد المحرومين من المدرسة » ، أي صفوف اضافية في المدارس القائمة . وعبّرت اللجنة اليهودية عن رغبتها في تخصيص ٣٠٪ من حصتها لتعليم الاولاد المحرومين من المدرسة و ٦٠٪ منحا للمدارس اليهودية القائمة ، و ١٠٪ للمناشط الثقافية والتربوية الاخرى . وبما أن اليهود كانوا يشرفون على ادارة

مدارسهم الخاصة ، فقد كانوا قادرين على استغلال حصتهم من الضريبة استغلالا جيدا . أما العرب فكان عليهم أن يلجأوا الى المدارس الحكومية أو المدارس الخاصة .

على أن ابكاريوس ينكر تعلل الادارة الانتدابية بأن المال كان لا يكفي لتقديم التسهيلات التعليمية الجيدة في عموم البلاد ، صحيح أن حالة المالية العامة لم تكن منتعشة دائما ، لان فلسطين مرّت بسنوات عجاف وسنوات خير ، ولكن الادارة قد اقتصدت في سنوات الخير بحيث توفر لديها احتياطي مالي ضخم ، بلغ عدة ملايين من الجنيهات . والمحاولة الوحيدة لتسويغ تقصير الادارة الانتدابية في اداء واجباتها في ميدان التربية والتعليم ، هو الجدل بأن الاضطرابات المتعاقبة كانت تستنزف الخزانة على نحو غير متوقع ، وطلب المخصصات للحفاظ على الامن كان ضخما جدا . بحيث كانت الخدمات الرئيسية في البلد تتحمل عواقبه . ومع ذلك، فاختزان الحبوب واحتكارها من جانب الحكومة ليس أقل مدعاة للوم من اختزانها من قبل الافراد . ومن المؤكد أن الانفاق على تعليم الصبيان والبنات والارتقاء بهم كمواطنين ملتزمين بالقانون ، هو أكثر اقتصادا من رصد الاموال لتلبية الطلبات المتعاظمة للانفاق على الشرطة والسجون . والاكتفاء بصرف ٦٪ من مجموع نفقات الحكومة على التعليم ، لا يمكن تسويغه ولا تفسيره مادام ٦٦٪ من أولاد العرب في سن المدرسة محرومين من أية فرصة للتعليم(١٩) .

لقد وجّه كثير من النقد الى الحكومة لان العربية هي لغة التعليم في مدارسها . وذهب البعض الى حدّ لوم الحكومة لاقامة مدارس قومية عربية موازية للمدارس اليهودية . وفي حين يجب التسليم بأن الروح القومية تسود جميع طلبة المدارس الحكومية وغيرها ، فيجب التسليم أيضا بأن تلك الروح القومية لم تزدهر وتتغذى بواسطة المدارس . انها بدات في منازل الطلبة ، وعبّرت عن نفسها في ساحات لعبهم وتجمعاتهم ومناسباتهم الاجتماعية . انها روح ، كما يقول ابكاريوس ، لا يستطيع المعلمون قمعها واخمادها دون الاضرار بمكانتهم ونسف سلطتهم(٢٠) .

الاشغال العامة :

وينتقل ابكاريوس الى ميدان الاشغال العامة التي خصص اكثر من نصف نفقاتها لصيانة الطرق والجسور . فمن مجموع مخصصات الاشغال العامة البالغة ٦٤٨٫٠٠٠ جنيه فلسطيني لعام ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ ، صرف على صيانة وترميم الطرق ٣٤٥٫٠٠٠ جنيه فلسطيني ، وعلى ايجار المكاتب والمحلات ١٨٠٫٠٠٠ جنيه فلسطيني، وتشمل الاشغال العامة الاستثنائية مجالا اوسع ، كانشاء المباني ، واجراءالترميمات

الطارئة ، وتنفيذ مشاريع مدّ المياه والري ، وعديد من الاشغال الاخرى . ولكن البند الذي يتكرر سنويا هو بند الطرق والجسور ، ويشمل تحسين الطرق القائمة وبناء طرق جديدة . فدائرة الاشغال العامة بهذا المعنى تفسح مجالا واسعا للعمال ، ولمناشطها في بناء الطرق أهمية حيوية للتطور الاقتصادي في فلسطين (٢١) .

ولقد ذكر فيتال كينيه Vital Cuinet منذ عام ١٨٩٦ أن مدينة القدس كانت مرتبطة بمدن يافا ونابلس والخليل واريحا وعين كارم بطرق حجرية رديئة البناء(٢٢) تفتقر الى الصيانة ذات التكلفة المرتفعة . وكانت العربات هي الوسيلة المرفهة للنقل والسفر . ولكن الحجاج النازلين في يافا ، غالبا ما كانوا يسافرون الى القدس على متن الجياد ، قاطعين مسافة ٦٥ كيلو مترا على مراحل سهلة في مدى يومين . وابان الحرب العالمية الاولى بنيت طرق عسكرية على عجل ، وبعد احتلال فلسطين عام ١٩١٨ جرى تحسين كثير من هذه الطرق لمرور المدنيين ، برغم أن استعمال السيارات كان نادرا . وبدأ بناء الطرق على نحو عشوائي تقريبا عام ١٩٢٣ ، ووجد عدد كبير من المهاجرين اليهود عملا في بناء الطرق ، بوصفهم عمالا غير مهرة ، وبينهم عدد من المهاجرين المتعلمين ، أقبلوا على هذا العمل اليدوي لانهم لم يجدوا سواه لكسب عيشهم . وكانت الاجور المدفوعة الى العمال اليهود غير المهرة آنذاك ، أي في مطالع العشرينات ، أعلى بنسبة ١٥٪ من مستوى الاجور السائد في البلاد . ولكن العمل المتساوي يسوّغ الاجر المتساوي ، والمهاجر اليهودي المتعلم بوصفه عاملا غير ماهر ، كان يتفوق عليه العامل العربي كثيرا ، وجلده على العمل لم يكن يتكافأ مع جلد العربي . وهكذا وجد معدل مزدوج لاجور العمال غير المهرة : معدل منخفض للعرب ، ومعدل مرتفع لليهود ، على أساس المستوى الاعلى للمعيشة ، في حين كان العرب واليهود يعملون غالبا في نفس العمل ويعيشون في نفس الشروط والاحوال وطبيعي أن يستنكر العرب هذه المعاملة ويروا فيها تحيزا اخر لمصلحة اليهودالوافدين الجدد ، وبينما كانوا مايزالون يشكلون اقلية بين السكان ، الا انهم تمكنوا من فرض رغائبهم على حكومة مطواعة راضخة لسياسة تهدد بابتلاع العرب في عقر دارهم بمد متصاعد من الهجرة(٢٣) .

ويتحدث ابكاريوس بمرارة عن مشاعر العرب بازاء هذا الغبن والاجحاف اللاحق بهم ضمن بلادهم ، ويشير الى موجة الغضب العربي التي اجتاحت البلاد ، والتي عكستها الصحافة العربية المحلية ، ولكن العرب كانوا بحاجة ماسة للعمل لكسب عيشهم وعائلاتهم ، فاستسلموا للحاجة ، وتناولوا الاجور المخفضة ، وظلوا ينظرون بحنق مكبوت الى المعاملة المفضلة التي كان يلقاها المهاجرون اليهود من الادارة الانتدابية .

ولكن الامر لم يقف عند هذا الحد ، ففي عام ١٩٣٨ ، وبينما كان المعدل المزدوج للاجور مايزال ساري المفعول ، قامت الحكومة بمحاولة جدية لخفض الاجر اليومي للعامل العربي غير الماهر ، وقد بلغ آنذاك ١٠٠ ملا أي شلنين اثنين يوميا ، فأكدت ان تقدير أجور العمال يستند الى هذا الاجر ، ولكن هذا لا يعني بأن الاجور المدفوعة حاليا لن تكون أقل من هذا الحد . لقد طلب من دوائر الحكومة بأن تبذل مساعيها للحصول على عمال بأرخص معدل يمكن اعتباره معقولا وعادلا . ولتفحص الرأي القائل بأن العامل العربي يمكن الحصول عليه بأقل من ١٠٠ مل يوميا ، اقترح تقديم بعض الاعمال في طرق القرى بأجر أقل ، على أساس أن يترك العمل فيها اذا لم يظهر وشيكا العامل المخفض الاجر . وواضح أن هذه المحاولة التي تكاد توازي الاستغلال لا يمكن تبريرها الا في ظل نظام رأسمالي قاس محروم من أدنى قدر من الحياء والخجل . ويوضح ابكاريوس سبب استضعاف الحكومة للعمال العرب بأنه لم يكن ينتظمهم اتحاد أو نقابة تدافع عن حقوقهم وتفرض مطالبهم العادلة . فالعمل العربي أشبه بالجسم المشلول ، يأتي أعضاؤه من القرى في المواسم السيئة ، يشكون الفقر ، وجميعهم أميّون عمليا . فلو كان وراء هؤلاء الرجال تنظيم مثل اتحاد العمل اليهودي ، فلن تجري أية محاولة قطعا لخفض الاجور العربية . ان قبول العرب بأجر يقل عن ١٠٠ مل يوميا ، حين يطلب العامل اليهودي ويتلقى ٢٥٠ ملا (٥شلنات) يوميا ، كان فقط يضاعف السخط العربي ويؤجج النار تحت الرماد . وينقلابكاريوس عن تقرير عصبة الامم عن فلسطين لعام ١٩٢٦(٢٤) ، فيشرح « منجزات » المجلس الاستشاري للطرق الذي تشكل عام ١٩٢٦ ليقدم مقترحات الى الحكومة بشأن بناء طرق جديدة ، ويساعد في صوغ سياسة تضع برنامجا لصيانة وتحسين الطرق الحالية . ومنذ البداية وضع المجلس مبدأين أولهما أن لا تعيق الطرق الجديدة ارباح ومكاسب السكة الحديدية ، وهي مشروع تملكه الحكومة ، وذلك بتجنب بناء الطرق الموازية للسكة الحديدية . وثانيهما أن الطرق التي يقصد منها خدمة منطقة معينة يمكن بناؤها فقط اذا ساهم الفريق المعني بنسبة جيدة من كلفة البناء . وعليه فاذا أخذ ذلك بعين الاعتبار ، كان من الطبيعي ان تعطي الافضلية للطرق التي تصل المستوطنات اليهودية بالطرق الرئيسية ، مادامت الوكالة اليهودية يمكنها أن تساهم بتلك النسبة من خلال مؤسساتها المالية . والنسبة المطلوبة كانت تبلغ غالبا نصف الكلفة المقدرة لبناء الطرق ، ولكن الصيانة تقع على عاتق الحكومة بصورة كاملة .

وبعد سنتين وضع مجلس الطرق برنامجا بالطرق المرغوبة ، والتحسينات للطرق القائمة ذات الاولوية ، ليجري تنفيذها حالما تتوفر المخصصات المالية . ونفذ البرنامج في السنوات التالية بعد تعديلات استوجبتها الظروف المتغيرة السريعة للبلاد بحيث كان بناء « طرق الامن » أي الطرق التي تصل المستوطنات بالطرق الرئيسية ،

سببا اخر لتعديل البرنامج الموضوع. فاذا استوجبت اسباب حماية مستوطنة يهودية بناء طريق مزفت ، فمن المؤكد أن نفقة البناء لا بد أن تقع على عاتق الحكومة . وسواء كان بناء الطرق في فلسطين لاسباب الامن أم لدواعي المساهمة في كلفة البناء ، فان مد الطرق في المناطق الشمالية ، حيث تقع غالبية المستوطنات اليهودية ، أصبح الشيء الملفت للنظر في تقدم شبكة الطرق(٢٥) .

ويثبت ابكاريوس تحيز الادارة الانتدابية للمخطط الصهيوني ، حين يتحدث عن واقعة من وقائع المجلس الاستشاري للطرق ، الذي كان ينظر عام ١٩٣٣ في اقرار برنامج جديد لمد الطرق . فقد حاول العضوان العربيان جاهدين أن يتبنى المجلس سياسة متعلقة لتطوير البلاد ككل . فأشاروا الى أن الجزء الجنوبي من فلسطين قد أهمل ، ذلك أن الى جانب الطرق التي تصل مدينة القدس مع يافا الى عين كارم وأريحا والخليل ، لا يوجد سوى طرق صيفية لا يمكن عبورها في فصل الامطار . وان طريق يافا غزة الذي يكمل طريق القدس يافا حتى الكيلو متر (٤٥) ، قد جرى تزفيته عبر مستوطة ريشون لوزيون فحسب . ومن هذه المستوطنة حتى غزة وما وراءها الى بئر السبع ، كان الطريق في حالة رديئة مزرية لا تصلح لسير المركبات ، بحيث كانت المسمية والمجدل والفلوجة وبيت جبرين وبئر السبع ، معزولة تقريبا لنقص الطرق . ولم يكن العضوان العربيان بقادرين على اقناع المجلس ، وسرعان ما تحققا أن مشاركتهما في عمل المجلس كانت أكثر من عقيمة . فكل مطلب لهما كان يرفض ، واحتجاجاتهما تذهب هباء باعتبارها غير جديرة بالنظر . وعليه فاستمرارهما في دعم المجلس ، مع عجزهما عن اتخاذ قرار واحد لمصلحة تطور ونمو البلاد ، بغض النظر عن السياسة الطائفية ، لا بد أن يعرضهما لازدراء المواطنين العرب . وفي احدى المناسبات تصاعدت حدة النقاش ، حين تناول أحدهما خارطة الطرق الفلسطينية ، فظهرت الطرق كالشرايين والاوردة الحمراء ، وأشار الى الجزء الجنوبي لفلسطين حيث لا يمكن رؤية خط أحمر واحد الا بصعوبة ، وسأل العضو العربي رئيس المجلس فيما اذا كان لا يوافق على ضرورة حقن الجنوب الذي يشكو الانيميا بالدم ، وأنهى الحديث بقوله : « نريد دما أكثر هنا » . وكان ذلك اخر اجتماع حضره العضوان العربيان ، اذ قدما بعده استقالتهما الى الحكومة(٢٦) .

وينتقد ابكاريوس الاضرار الناجمة عن حماية الحكومة لمصالح السكة الحديدية والتشبث بأرباحها حتى على حساب تطور البلاد الاقتصادي الذي كان بحاجة ماسة الى انشاء شبكة طرق أكثر اتساعا ، ويقتبس ذلك من بحث للاقتصادي السوري حسني الصواف نشره في كتاب « تنظيم فلسطين الاقتصادي »(٢٧) ، مدعما بفقرة مقتبسة من تقرير لجنة تشكلت عام ١٩٣٤ لدراسة مشكلة النقل بواسطة المركبات ،

ورد فيها : « ان حالة كثير من الطرق الهامة وعدم وجود طرق غيرها ، اقتضى ان تسير المركبات على طرق غير معبدة ، حجرية ورملية عميقة ، الامر الذي اضاف كثيرا الى النفقات الجارية وخاصة فيما يتعلق بالبنود الثقيلة كهبوط الطرق ، واصلاحها وتحويلاتها . ويمكن التسليم بأنه أنجز الكثير لتحسين الطرق الحاضرة ، ولشق طرق جديدة ، ولكن مع ذلك ، يلاحظ أن سياسة تأمين السكة الحديدية من منافسة النقل بالمركبات ، كانت بين أسباب اخرى ، مسؤولة عن التلكؤ والتأخير في اكمال طريق حيفا عكا الضروري جدا للمواصلات بين فلسطين وسورية ، وطريق يافا حيفا المهم جدا لتطوير ما قد يكون أعظم رقعة من الارض بفلسطين من حيث امكاناتها الزراعية(٢٨) . ان السبب المشار اليه ، وهو حماية واردات السكة الحديدية كان مسألة تتصل بمناشط الحكومة التجارية وشبه التجارية التي أحست اللجنة بأن بمقدورها ان تنتقدها بلطف ، ولكن هذا لم يكن سوى سبب واحد بين أسباب اخرى . فاللجنة لا تستطيع بالتأكيد أن تفسر الوجود الطويل الامد للاشيء سوى الطرق الوعرة في الجزء الجنوبي من فلسطين الذي لو أمكن جلب المياه الى سطحه لتوفر فيه حافز الزراعة الكثيفة . وبما أن هذه « الاسباب الاخرى » تمس مشكلة حساسة في السياسة العليا ، فاللجنة أشارت باحتراس الى وجودها ، واحجمت عن التعليق عليها ، والحقيقة ان جنوب فلسطين الذي لم يكن يسكنه سوى العرب ، الحضر والبدو ، كان موضع اهمال مقصود من الادارة الانتدابية ، اذ حالت دون بناء الطرق فيه وجر المياه اليه ، وتنشيط الزراعة الكثيفة فيه ، وعرقلة نموه واعماره ، لئلا يجتذب العرب ، فيقبلون على أرضه المعطاء ، ويقيمون المشاريع عليها ويشتد ساعدهم فيها ، وبذلك يعيقون مشاريع الاستيطان الصهيوني المرتقبة التي لم يحن أوان تنفيذها بعد . ومادامت المستوطنات الصهيونية تتركز في شمال فلسطين وتتوطد أركانها ، فالجنوب لا يقع على جدول الاستيطان الصهيوني الملح ، ولكن دوره آت في المرحلة التالية .

أما منجزات دائرة الاشغال العامة في فلسطين ، فكانت متحف رواكفلر ومنزل المفوض السامي ودائرة البريد ، والكلية العربية ، ومباني المدارس والمشافي . ولكن أبرز المنجزات كان بناء ثلاثين مبنى للشرطة في المدن والمناطق الريفية في غضون سنتين أو نحوهما ، بكلفة قدرت بمليون ونصف المليون من الجنيهات الفلسطينية . هذه المباني ، وهي من طراز القلاع والحصون ، قد جرى تصميمها خلال ثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٨ . والمباني تطالع الناظر بكتلتها الضخمة ، وتترك في نفسه انطباعا قويا لا ينسجم مع صورة المنظر الطبيعي المجاور لها . ذلك ان تخطيط بنيانها الرامي الى تحقيق أغراض الامن ، ينطبق مع القسمات العامة للقلعة الاستعمارية الفرنسية ،

ولكن ينقصها الذوق المعماري ، بله الاناقة والجمال . وفي المناطق القاصية ، يتسع بعض هذه المباني الضخمة ليشمل بعض دوائر الحكومة . أوليس من الافضل أن تستقر دوائر الحكومة في الثكنات بدل استئجار البيوت وتحويلها الى مكاتب ؟ ويرى ابكاريوس ان السماح بصرف مثل هذه النفقات الباهظة على بناء مراكز الشرطة ، لما يحطم قلب الموازنة المالية ، خصوصا وأنه لم ينجم عنها تقليص المصروف السنوي المخصص لاجور المكاتب ! ولاحظ أنه برغم توفر المخصصات وشراء الارض لبناء مكاتب الحكومة في القدس ، فقد استمرت الادارة الانتدابية في استئجار المباني وبيوت السكن والفنادق لاستعمالها كمكاتب . وعلى مدى ربع قرن ، انتقلت سكرتارية الحكومة ثلاث مرات وأشغلت الخزانة المالية عدة مرات ستة مبان مختلفة ، وبدلت ادارة المناطق مقرها ثلاث مرات ، وكذلك فعلت دائرة الزراعة والاسماك ، ودوائر اخرى (٢٩) . وواحد من الاسباب التي قدمت للاستمرار بهذا الوضع الغريب ، هو أن الفائدة على المال المخصص للبناء ، وارتفاع كلفة الصيانة ، سيشكلان رقما أعلى من الايجار . والرد هو أنه اذا بررت هذه الحجة نفسها في السنوات العجاف ، فانها تفقد قوتها حين باشرت الحكومة تجميد احتياطي سرعان ما تراكم ليصل الى ٦ملايين جنيه فلسطيني ، ولكن مدراء المال يظلون سادرين في غيهم .

★ ★ ★

وبعد ، فهذه مرافق ثلاثة عرضنا لها في عملية تطبيق الانتداب البريطاني في فلسطين بشكل عام . وهي برغم ذلك ، تفتح الباب أمام مزيد من البحث والتقصي فيها ، وفي سواها من المرافق التي لا تقل عنها أهمية . ويتضح من الشهادة التي يطالعنا بها أبكاريوس وكأن مناشط الادارة الانتدابية تدور في حقيقتها حول محور تطوير الوطن القومي اليهودي باتجاه الدولة اليهودية . لقد كانت هذه الاقلية اليهودية بمعونة ادارة انتدابية منحازة لها ، قادرة على رصد مبالغ ضخمة من الموازنة المالية ، لتنمية مرفق الامن العام على نحو غير مسبوق ، وذلك لحماية الهجرة اليهودية والاستيطان اليهودي ، بينما لا تخصص للمرافق الاخرى ذات التأثير الحيوي على الغالبية العربية الا مبالغ متواضعة ، كالتعليم والاشغال العامة والخدمات الصحية ، والحكم المحلي ... لقد كان بمقدور الاقلية اليهودية أن تبني الطرق على حساب الحكومة ولو جزئيا ، من أجل نمو وتطور مستوطناتها ، مثلما كان بمقدورها أن تقنع الحكومة بتسليح اليهود ونزع سلاح العرب ، وأهم من كل ذلك ، قدرتها على شل كل محاولة لتشكيل حكومة دستورية في فلسطين . لقد طالب اليهود مؤخرا ،

كما يقول ابكاريوس(٣٠) بتشكيل مجلس بلدي في مدينة القدس حيث يشكلون غالبية نسبية(٣١) ، فاذا كانوا معنيين بمبدأ الحكم الديمقراطي وتنفيذ الاجراءات الدستورية ، فلا يجب ان يعترضوا على حكم الغالبية في فلسطين . اما قبولهم بتطبيق مبدأ الحكم الديمقراطي في القدس ، ومقاومتهم تطبيقه على البلاد كلها ، فأمر غير منطقي ولا يمكن الدفاع عنه . وهو يكشف عن عدم رغبتهم في تطبيق الحكم الديمقراطي على العرب في فلسطين ، بمثل ما يدل على تميز الصهيونية بالعنصرية الانغلاقية التي لا تقيم وزنا لقيم الحق والعدل ولمبادىء الانسانية والاخلاق .

* * *

الحواشي :

(١) يعقوب العودات « من اعلام الفكر والادب في فلسطين » – طبع جمعية عمال المطابع التعاونية في عمان ١٩٧٥ ، ص ٢١ – ٢٢ .

(٢) قيل هذا الكلام سنة ١٩٤٦ ، أي قبل أن تتحرر اقطار الشمال الافريقي العربية .

(٣) M.F.Abcarius - Palestine through the fog of propaganda, pp.9-11

(٤) العودات ، المصدر نفسه ، ص ٢٢ .

(٥) أحمد طربين « الانتداب البريطاني في خلفية الدولة اليهودية » القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٥٢ نقلا عن تقرير اللجنة الملكية .

(٦) ابكاريوس ، ص ٩٥ .

(٧) المصدر نفسه ٩٥ .

(٨) ابكاريوس ، المصدر نفسه ص ٩٥ .

(٩) هو نائب رئيس اللجنة الصهيونية .

(١٠) Cmd 5479 P. 200

(١١) المصدر نفسه ص ٩٩ .

(١٢) المصدر نفسه ص ٩٩ .

(١٣) ابكاريوس ص ١٠٠ ، نقلا عن تقرير لجنة بيل Cmd 5479 P. 201

(١٤) ابكاريوس ، ص ١٠١

(١٥) ابكاريوس ، المصدر نفسه ص ١٠٢ و ١٠٣

(١٦) أخذت هذه الارقام من التقرير الاخير الذي نشره قسم التربية بالادارة الانتدابية .

(١٧) ابكاريوس ، المصدر نفسه ، ص ١٠٣ .

(١٨) المصدر نفسه ، ص ١٠٤

(١٩) المصدر نفسه ، ص١٠٤ – ١٠٥

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ١٠٥

(٢١) ابكاريوس ، المصدر نفسه ، ص ١٠٥ .

(٢٢) Vital Cuinet, Syrie, Liban et Palestine. Paris 1896, P. 605

(٢٣) ابكاريوس ، المصدر نفسه ، ص ١٠٦ .

(٢٤) Report of the league of Nations on the Administration of Plestine, 1926 p. 53.

(٢٥) ابكاريوس ، المصدر نفسه ص ١٠٧ .

(٢٦) المصدر السابق نفسه ، ص ١٠٨ .

(٢٧) أنظر:
Said Himadeh (ed.) Economic Organization of Palestine, Beirut, 1938, pp. 306 - 7

(٢٨) Ibid, p. 307, quoted from the Palestine Gazette, Supplement No 15 of Nov. 1931, p. 879.

(٢٩) ابكاريوس ، المصدر نفسه ، ص ١٠٩ .

(٣٠) ابكاريوس ، المصدر نفسه ، ص ١١٦ ، ص١٢٥ .

(٣١) يذكر ابكاريوس أنه حين نفي رئيس بلدية القدس الى سيشل باعتباره عضوا في الهيئة العربية العليا ، حل محله ضابط متقاعد لم يلبث أن توفي ، فاستلم يهودي مهام رئيس البلدية لمدة أشهر ومعلوم أن بلدية القدس كانت منذ أيام عمر بن الخطاب تعرف باسم (الحسبة) وكان يتولاها رئيس مسلم ، مع فاصل زمني قصير ابان الحكم الفرنجي الصليبي . وقد طلب اليهود جميعا تعيين رئيس بلدية يهودي في القدس ، وبعد تردد توصلت الحكومة الى قرار تكون رئاسة البلدية بموجبه متناوبة سنويا بين عربي ويهودي مثالث لا عربي ولا يهودي ، وهكذا ترك للعرب ثلث حقهم ، وجعلت حصتهم مثل حصة اليهود ! ص ١٢٤ .

★ ★ ★